رمضانية: 1441هـ-2020م

دولة فرعون في القرآن الكريم

-أبنية الباطل ومسالك التقويض-

بقلم:

أمين يوسف الأحمدي

قادري

-كان الله له-

فهرس:

بسم الله الرحمن الرحيم

—مقدمة—

الحمد لله القاهر فوق عباده، الباقي بعد فناء خلقه، الذي قهر عبيده بسلطان الموت، وأمهلهم ساعة الدرك قبل ندامة الفوت، والحمد لله الذي أذل أعناق الجبارين بعد عتوّهم، وحمى قلوب الصالحين من أن تفتتن بعلوّهم، وشفى صدور أهل الإيمان بمشهد هلاك أهل الطغيان، وأراهم في دار العاجلة بعض مصائر الظالمين في الآجلة، ليكون في ذلك عبرة للمعتبرين وبشارة للمستمسكين، وصلى الله على نبينا مُحَمَّد المبعوث بالحكمة والموعظة الحسنة، القائم بالسنة المرضية، القاصم للسنن الفرعونية، المرسل بدعوة الحق ودولة العدل، التي يؤمر فيها بالمعروف وينهى فيها عن المنكر ويوحد فيها الله ولا يشرك به، صلى الله عليه وعلى آله كنوز الحكمة، وصحبه أسود الملة، ومن تبعهم على النهج وعضدهم على القصد إلى يوم الدين أما بعد:

فإن من أسرار الاعتبار القرآني أن الله جل شأنه حين قص في كتابه أخبار الأمم الخالية نسقها نسق النماذج لا نسق الأعيان والأفراد، وهذا النسق قائم على مجموعة خصائص هي مميزات القصص القرآني، فمن ذلك كثرة ذكر الأوصاف والنعوت، وتعليق الأحكام والمصائر بها، وكثرة ذكر العلل والحكم مقترنة بالأفعال، واطراد التداخل بين القصص والموعظة المأخوذة من تفاصيلها، ومن خصائصه مداومة مخاطبة النبي ﷺ والذين آمنوا في تضاعيف القصة لتبقى نفوس المؤمنين يقظة وقلوبهم حاضرة لما يراد لها من تحصيل العبرة في القصة، ولئلا تغفل بسرد الخبر عن العبرة منه، فكان قصص القرآن بهذا المعنى أحسن القصص، إذ جرى في مجرى المراد من موعظة القرآن ودروسه، ولم يخرج عن مقاصده في التذكير بالتوحيد والعبودية والطاعة.

ومواعظ القرآن من القصص لها تعلق بأفراد الأشخاص من أهل الصلاح وأهل الفساد، كما أنها متعلقة بالأمم والجماعات والدول، ليعلم المؤمن أن الفساد يتخلل أعمال الناس في خواص أنفسهم، كما يتخللها في نظام جماعتهم، وأنهم مطالبون بإصلاح أعمالهم الذاتية كما هم مطالبون بإصلاح أعمالهم الجماعية، فخص الله بالعقوبة وعم، وأفرد بالنعمة وشمل على قدر انفراد أهل الصلاح بالخير فيما عني به كل فرد منهم في خاصته، أو اجتماعهم عليه فيما لا يقوم به إلا جماعتهم.

ونماذج القرآن تحمل كل الأنواع على مراتبها من الانفراد والاجتماع، من أفراد الناس وبيوتهم وأقوامهم ودولهم. وقد ضرب الله لكل نوع من كل مرتبة مثالا من أهل الخير والطاعة، ومثالا من أهل

الشر والمعصية، لئلا يكون لأحد على الله حجة، فلا يحتج الفرد العاصي بعدم الظهير على الحق، ولا تحتج الجماعة العاصية بالغلبة على الرأي، واتباع هوى الكثرة.

ولما كان شأن المسلمين أن تقوم لهم في الإسلام دولة تمنع حوزتهم وتعصم جماعتهم، وتكون لهم حصنا من أعدائهم، ويمكن لهم فيها إقامة دينهم، ضرب الله تعالى لهم في القرآن مثلين عظيمين: مثلا من دولة الحق والدين والعزة بإقامة الشريعة، وهي دولة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، ومثلا من دولة الظلم والبغي والعدوان والمعصية، وهي دولة فرعون وملئه. فكانت دولة سليمان عليه السلام مثلا من اجتماع هدى النبوة وعزّة الملك، وأن الله جل ذكره إذا أعزّ أهل طاعته وهُداه سخّر لهم أسباب القوة، وأخدمهم جنوده الخفية ومخلوقاته القوية، ورضي منهم الشكر على النعمة، والإقبال على الطاعة والعبادة، والجهاد لإعلاء كلمة الله. وأما دولة فرعون فكانت مثلا من اجتماع الطغيان على الخالق والعدوان على الخلق، فأزالها الله بآية عظيمة من آياته، وأبقى آثارها وذكرها عبرة وعظة لمن عاين الأثر أو تلا الخبر.

ولما كانت حال أكثر دول الزمان المتأخر إلى الظلم أقرب وبالعدوان أشبه، كان حقا على الناظر في كتاب الله أن يتأمل حال الدولة الفرعونية ليفقه سنن الله في الظالمين، وأحوال منابذة الأنبياء وأتباعهم لدولة الظلم، ومنهاجهم في دفع ظلم الظالمين وصد عاديتهم على المستضعفين، كما كان حقا على من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين أن يتبصّر في مسالك مهالك آل فرعون ومصائرهم التي إليها صاروا بما اجترحوا من محادة الله في أمره والتجبر في أرضه والعدوان على عباده، والاستقواء بنعمه على معاصيه، فإن الله تعالى ما ذكر من نبأ آل فرعون أمرا إلا ليحذر الناس سلوك سبلهم فيه من حال أفرادهم وجماعتهم.

وأنا ذاكر في هذه المقالة إن شاء الله ما تيسّر من التعرف على أحوال هذه الدولة الفرعونية والملة الطاغوتية التي ذكر الله من أنبائها في كتابه، ليقف الناظرون منها على فصول خطيئتها ويعلموا وجوه مظالمها وشرورها وعواقبها على التفصيل والإجمال، وأذكر إلى ذلك ما بسط الله من أنباء عمرانها وتاريخها ورجالها وجنودها ومبلغ قوتها، ووجوه سياستها وإدارتها، ومراتب أهل خدمتها، ليقع بذلك الاشتمال على نبئها والاعتبار بخبرها.

وقد أكثرت في هذا المقال من سرد الآيات من كتاب الله؛ إذ هي المقصد وعليها المدار فيما له عقدت الكلام، وأقللت ما سوى ذلك من النقول والشواهد، لئلا تشتغل بها القلوب عن التبصر في كتاب الله، ولم أورد من ذلك إلا نقلا يتسق به الكلام، أو يتبيّن به المراد، أو يترجح به الاختيار في التفسير. ونستعين بالله العليم الحكيم اللطيف الخبير على الفهم والاستنباط، ونعوذ به تعالى أن نقول

عليه بغير علم، أو ننزع من دلالات كلامه عن غير منزع، أو نزعم في كتابه ما لم ينزّله، ونسأله تعالى أن يرزقنا مع العلم والفقه الاتعاظَ والاعتبار، وأن يقرن لنا بهما سلوك التي هي أقوم ومجانبة السبيل الأظلم، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

تمهيد: دولة فرعون أنموذج تاريخي

لا يرد في القرآن الكريم ذكرُ خبرِ نبي ولا ولي ولا صالح ولا مفسد ولا ظالم إلا كان الغرض من ذكره أخذ العبرة وفهم الحكمة وربط المصائر بالأعمال: من خير وشر، قال الله تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[هود: 120]، وقال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[يوسف: 111]. فليس الغرضُ الإيقافَ على أخبار الماضين من حيث كانوا أمما متتابعة، ولكن من حيث كانت سيرهم أعمالا محتملة للتكرار، ولِأنْ يستعيدها الناس قرنا بعد قرن، فكان حقا أن يبين الله تعالى ما تعلق بتلك السير من العواقب المستحقة بما فيها من الخير والشر.

ودولة فرعون من الدول السائرة الذكر في التاريخ، لما خلد في الأرض من آثارها الشاهدة بما كانت عليه من الضخامة والقوة وعظمة العمران واجتماع أسباب القوة والنعمة الظاهرة، ثم لما تعلق بها من الأمور الدينية العظيمة من جنس بعث الرسل وإرسال النذر وظهور الآيات وتتابع المعجزات، فكانت دولة فرعون عبرة في أسباب الدنيا وفي أمور الدين، وجعلها الله مثلا لمن استأخر عنها وأدرك خبرها وعلم سيرتها، كما قال تعالى: (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ)[الزخرف: 55-56].

ويرد الخبر عن دولة فرعون كثيرا في القرآن مثلا يضربه الله لكفار قريش خاصة، بحسب مواقفهم ومقاماتهم ومعاداتهم لدعوة النبي ﷺ، وقد جاء ذلك في القرآن بكثرة في ثلاثة مواقف:

فأما الموقف الأول؛ فموقف بغيها على النبي ﷺ وأصحابه بمكة واستضعافهم بالقتل والتشريد، وعدوهم على من لا شوكة له ولا منعة، وتضييقها على المسلمين بالحصار والتجويع، فذكر الله تعالى لنبيه الخبر عن فرعون وقومه وعن صنيعهم في موسى وقومه ليكون ذلك تسلية للمسلمين ووعيدا للمشركين، وبشارة لأصحاب محمد ﷺ بأن ما هم فيه سبيل لتمكينهم، وزيادة في أجورهم، ورفع لدرجاتهم، كما قال الله جل ذكره في أول سورة القصص: (طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)[القصص: 01-06]، فأجمل الله تعالى في هذا الخبر الذي تقدم به الخطابُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم الإخبار به، وهو البشارة بامتنان الله على المستضعفين بالإمامة ووراثة الجبارين، والتمكين في

الأرض، وإيقاع العذاب والعقوبة على الجبارين العتاة. وبيَّنَ الله تعالى أنه يورث الأرض لأوليائه ولو بعد حين، فثبت فؤاد النبي ﷺ حين أرادت قريش نفيه عن مكة وتشريده في الأرض، فقال سبحانه: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)[الإسراء: 76-77]، ثم ضرب له مثلا عظيما من هذه السنة الإلهية قبل ختام السورة، واتسق له دليل المثَل بتشريك لفظ (الاستفزاز)، فقال سبحانه في شأن فرعون وبني إسرائيل: (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)[الإسراء: 103-104].

وأما الموقف الثاني؛ فموقف مناظرتها وجدلها بالباطل وطلبها الآيات تعجيزا وإمعانا في الإعنات، فضرب الله تعالى لهم المثل بمناظرة فرعون موسى عليه الصلاة والسلام، وبإغراء فرعون قومه بالكفر بموسى بحجة طلب الآيات، كما مثّل الله تعالى لزعمهم أنه لا تستحق النبوة إلا مع الغنى والسعة في النعمة، وقد بسط الله هذا المثال في سورة الزخرف بسطا عظيما، فقال في مطلع السورة مبينا هذا المقصد: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)[الزخرف: 06-08]، ثم ذكر تعالى ما احتجت به قريش على كفرها وردها دعوة النبي ﷺ فقال سبحانه: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[الزخرف: 31-32]، فضرب الله لها مثلا من هذا الجدل الباطل المموه بجدل فرعون واعتذاره عن كفره، فقال تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)[الزخرف: 51-54].

وأما الموقف الثالث؛ فموقف خروج قريش يوم بدر في فخرها وخيلائها، والله تعالى يسوقها إلى كسر كبريائها ومصارع صناديدها، فضرب الله لها مثلا عظيما من خروج فرعون وجنوده يطلبون أقفاء بني إسرائيل، وهم يرون أنهم يردون عبيدا أبقوا، وأنهم لا يزيدون على حشرهم بالسياط وقرعهم بالعصا، اعتمادا منهم على ظاهر قوتهم ووافر عتادهم، فأهلكهم الله تعالى الهلاك الذي بقي ذكره على امتداد الزمان عبرة وموعظة، ولذلك صدّر الله تعالى الخبر عن يوم بدر في سورتين عظيمتين من القرآن بذكر الخبر عن فرعون على سبيل الإجمال، فقال تعالى في سورة آل عمران: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ . كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[آل عمران: 10-11]، ثم أتبعه سبحانه الخبر عن يوم بدر

فقال: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)[آل عمران: 12-13]. وكذلك بسط الله تعالى خبر بدر في سورة الأنفال فذكر الخبر عن تأييده المؤمنين بالملائكة، وعن تلاقي الفريقين ونفخ الشيطان في معاطس المشركين، ثم ذكر تعالى نصر المؤمنين على أعدائهم، وتأييده لهم بالمدد، على قلة العدد وضعف العُدد، فقال تعالى -يذكّرهم سنته في نصر أوليائه وإهلاك أعدائه-: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[الانفال: 52].

فدلت هذه المواقف الثلاثة على أن دولة فرعون بما اشتملت عليه من الظلم والبغي ورد الحق واضطهاد الصالحين والمصلحين؛ نموذج يتكرر وسيرة مستمرة في أخلاق البغاة والطغاة وأعمالهم، ولذلك سمى الله تعالى عمل آل فرعون: (دأبا) والدأب العمل والكدح الذي يستمر عليه صاحبه، حتى يصير له كالعادة، وعليه كالأمارة، به يعرف، وإليه ينسب، ومن أسرار هذه اللفظة في القرآن أنها وردت ثلاث مرات مضافة إلى آل فرعون والذين من قبلهم، ورابعة مضافة إلى الذين من قبلهم إلا أنهم هم المخاطبون بها، فذكر سبحانه قول مؤمن آل فرعون لقومه: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)[غافر: 30-31]، فكأن هذا الدأب الذي ابتدأته أمم الضلال الأولى انتهى إلى آل فرعون فأتموا بنيانه وسنوا نظامه وانتهوا فيه إلى الغاية من الظلم والطغيان والكفر والجبروت، حتى صار منسوبا إليهم مخصوصا بهم والسابقون لهم فيه تبع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

1-المكونات البشرية في دولة فرعون:

ذكر الله تعالى في شأن دولة فرعون أفرادها وجماعاتها ومراتبها، وبيّن ما كان عليه كل فرد أو جماعة ممن سماهم من الاعتقاد والعمل والأخلاق والطباع، وما تعلق بذلك من مدح أو ذمّ أو ثواب أو عقاب. ونوّع الله تعالى ذكر أفراد هذه الدولة على حسب المنازل والأعمال لتقوم الحجة بالتمثيل على كل ركن من أركان الدول المتأخرة، فيعلم كل ذي منزلة ما يستحقه بمنزلته وما يجب عليه من حقوق مرتبته.

وقد ذكر بعض أفراد هذه الدولة بأسمائهم، وآخرون بنسبتهم، ومنهم من أبهم اسمه ونقل خبره، وأما الجماعات فمنها التي وسمت بما يدل على منازلها من الملك والحكم والتدبير، ومنها التي عرّفت بأعمالها ووظائفها، ومنها التي أجملت بما يدل على ضعف حالها واختلال قوتها وعدوان الجبارين عليها. وفي كل واحدة من هذه الطوائف مواقف من الاعتبار وفوائد من النظر نذكرها تباعا إن شاء الله تعالى.

*__فرعون__:

رأس الكفر الأكبر، وناهج الملة الطاغوتية، ومؤسس دولة الظلم، الذي كل ظالم بعده فإنما ينهج نهجه ويسير سيرته، وما زال عبّاد الدنيا وأئمة الكفر ومردة النفاق يعظّمونه ويحيون ذكره، كما أن أهل الإيمان وأتباع الأنبياء يلعنونه ويقبّحون سيرته. وفرعون المذكور في القرآن هو الذي أرسل الله إليه النبيين الكريمين الأخوين موسى وهارون عليهما السلام، والذي أغرقه الله في البحر، ويعنينا من شأنه في بحثنا هذا ما جاء من صفته ونعته وعمله الذي استوجب به الغضب واللعنة من الله تعالى، واستعجل به على نفسه العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

وقد وصف فرعون في القرآن بأوصاف وأسند إليه أعمال وذكرت عنه دعاوى عظيمة لم يدّعها أحد، وهذا بيان بعض ذلك:

أ-دعاواه: ذكر الله تعالى عن فرعون دعاوى عظيمة لا تخرج إلا من فؤاد ساكنه الشيطان الرجيم وأخذت أهواء النفس بمخانقه، فأنطقته بالدعوى العظمى التي لم يدّعها إبليس لنفسه، وهي دعوى الألوهية والربوبية التي هي حق المولى سبحانه الواجب توحيده فيه، فقال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)[القصص: 38]، وقال تعالى في شأن دعوة موسى إياه إلى توحيده الله عز وجل: (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)[الشعراء: 29]، وذكر الله تعالى في دعواه الربوبية ومنازعته صفة العلو: (فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)[النازعات: 21-24].

ب–صفاته: ذكر الله تعالى من فرعون صفات ونعوتا دالة على بلوغه الغاية من محادة الله تعالى، فمنها ما تعلق بصفات القبح، ومنها ما تعلق بصفات الجبروت، وقد أجمل الله الخبر عنه في آية عجيبة فقال سبحانه: (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)[الدخان: 30–31]، فدل إبدال قوله تعالى (من فرعون) من قوله (من العذاب المهين) على أن وجوده في الأرض كان عذابا، ومثل هذا لا يتصور إلا أن يشتمل المتصف به على مجمل نعوت القبح والفساد والجبروت الذي لا يقع معه صلاح البتة، ثم فصّل تعالى هذه النعوت في مواضع من القرآن، فوصفه تعالى:

*بالعلو: أي الترفع عن عبادة الله وعلى عباد الله، قال تعالى: (إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)[الدخان: 31]، وقال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)[القصص: 04].

*بالإسراف: قال تعالى: (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)[يونس: 83].

*بالإفساد: وهو ضد ما أرسل به الأنبياء من الإصلاح، قال تعالى: (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[القصص: 04].

*بالطغيان: وهو مجاوزة الحد فيما حد الله لبني آدم من القدر والقدرة والسلطان، قال تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)[النازعات: 17–19]. وهذا الطبع من الطباع المخوفة، لأن مجاوزة الحد مؤذنة بعدم الانتهاء إلى قدر معلوم، ومن هنا يفهم قارئ القرآن وجه المخافة الدائمة من موسى عليه السلام في قوله: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)[الشعراء: 12–14].

*بالتكذيب: وهو عنوان الكفر برسالات الله وآياته وأنبيائه، قال تعالى: (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى . فَكَذَّبَ وَعَصَى)[النازعات: 20–21].

*بالعصيان: قال تعالى: (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)[المزمل: 16]

*بالضلال والإضلال: قال تعالى: (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)[طه: 79]، وحين ادعى رشاد الأمر وسداد الرأي فقال: (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)[غافر: 29] أكذبه الله عز وجل، ونفى عن أمره الرشد جملة، فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)[هود: 96–97].

فهذه الصفات المذكورة هي التي أفرده الله تعالى بها في سياق ذكره، وقد ورد ذكره بصفات ونعوت أخرى مقرونا فيها بآله أو قومه، تدل على ما غلب على جماعة المتغلبين في دولته من الفساد العريض والطغيان الشديد، فذكر الله تعالى عنهم الكفر بالآيات وتكذيبها والظلم بها، والإفساد والاستكبار والإجرام، والبغي والعدو والفسق والخطيئة، وهذه علل إذا استحكمت في الجماعة كان ذلك عنوان البوار.

ومن خلائق فرعون السود التي دل عليها سياق الخبر عنه في القرآن: الحسد، وهو قرين الكبر وملزومه، فإن من ادعى في نفسه منزلة الألوهية أنى له أن يعرض نفسه للتسوية بالنظير في زعمه؟ وذلك فيما حكى الله تعالى عنه من قوله: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)[الزخرف: 51-53]. فإن من اطلع على بعض أسرار النفس البشرية علم أن هذه المقالة تكاد تنطق عن صريح الحسد والنفاسة على موسى عليه الصلاة والسلام أن يكون الله تعالى خصه بالرسالة والمكرمة، وفي لفظها ومدلولها نوع شبه من قول إبليس ينفس على آدم عليه السلام ما فضله الله به: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)[الأعراف: 12]، وهذا شأن الجبارين الذين لم يزكوا أنفسهم من أدوائها، ولم يستجيبوا لداعي الله بتزكية النفس، كما قال تعالى في شأنه: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)[النازعات: 17-19].

وفيما يأتي من ذكر شأن فرعون في سياسة ملكه مزيد بيان لما استولت عليه نفسه البغيضة من الأخلاق الردية والطباع النافرة، وبالله المستعان.

*__الملأ من قوم فرعون__:

وممن ذكر الله تعالى من جماعات دولة فرعون: الملأ من قوم فرعون، وهم علية قومه، وصفوة جمعه، الذين هم أهل حضرته ومحل مشورته وعصبة فساده، فهم به يستقوون، وهو عن فساد رأيهم يصدر، وكلهم بكل حال في شأن الضلال يأتمرون، وعلى سبل الفساد يتمالؤون، ولا يصدر عن مشورتهم إلا الشرور، ولا يجتمع رأيهم إلا على الظلم.

وإن من أسرار بقاء دولة الظلم والبغي التواطؤ بالرأي والقول والفعل على الشر ومعاداة الخير وأهله. وقد دل نظم القرآن وسياقه على هذا المعنى بقوة البلاغة دلالة عظيمة، حيث حبك كلام فرعون وكلام ملئه في ممالأتهم في شأن موسى عليه السلام، قال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)[الأعراف: 109-112] فجاء سياق الكلام هنا متداخلا، ثم جاء سياقه على التجريد والتفصيل في موضع آخر فقال تعالى: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)[الشعراء: 34-37]. فدل سياق سورة الأعراف على شدة الائتمار والمواطأة بين فرعون وملئه حتى كأنه يصدر عن متكلم واحد، وكأن كلهم قائل ومقول له. والحق أن أهل الشر شأنهم إذا كثرت بينهم الخلطة والاجتماع على مقاصدهم كشأن أهل الخير، يغلب عليهم القصد والمراد والنية من صلاح أو فساد، حتى ينطقوا عن لسان واحد، فكأن غائبهم شهد، وكأن جاهلهم علم، وكأن ساكتهم نطق.

وللملأ من قوم فرعون أعمال في نظام الشر والفساد دل عليها القرآن، فهم يمالئون فرعون على تصوير المعاني الباطلة التي ينبني عليها أمره ونهيه، وقد ذكر الله تعالى عنهم حكمهم على آيات موسى عليه السلام بأنها سحر، قال تعالى: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)[الأعراف: 107-109]، ومن شرورهم نظرهم في أسباب نصر الباطل وحرب الحق، كما ذكر الله تعالى عنهم مشورتهم الآثمة لفرعون إذ قالوا: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)[الشعراء: 34-37].

ومن عجبٍ أنهم حين قامت عليهم الحجة في مقام المناظرة وأظهر الله عليهم نبيه وأيده بالآيات البينات التي أذعن لها السحرة -وهم أميز الخلق لحق من باطل-؛ رغبوا بأنفسهم عن التوبة والإنابة والإيمان، ومالوا إلى التحريض والإغراء بالفساد، كما حكى تعالى عنهم ذلك فقال: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)[الأعراف: 127]. وهذا كذلك من تصويرهم الباطل في صورة الحق ورميهم الحق بصفة الباطل، حتى بلغ من فجورهم في الخصومة وبهتهم الحق أن جعلوا دعوة موسى عليه السلام إفسادا في الأرض، وما الإفساد عندهم إلا ترك عبادة طواغيت الإنس.

وشأن بطانة السوء -أمثال هؤلاء- في كل زمان أنها لا تنصح إلا بما تحفظ به حظوظها، وتمنع به حوزتها، فمن أصغى إليها من حاكم أو رئيس لم يَنُبْهُ منها إلا شؤم الرأي، فإن اجتمع إلى إلقائه السمع والشهادة إليها فساد طبعه وغلبة شهوة السلطان عليه فقد اجتمت عليه المطبِقات، وران على قلبه كسبُه، وأحاطت به خطيئته.

***آل فرعون–قوم فرعون:**

ومما كثر ذكره في القرآن: آل فرعون، وقومه، وسياقات ورودها دالة على أنها أعم من الملأ، فيندرج فيها كل من اجتمع إلى فرعون بسبب قريب أو بعيد، ولذلك صحت نسبة مؤمن آل فرعون إليهم مع مخالفته إياهم في النِّحلة، قال تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)[غافر: 28].

وأما غالب السياقات القرآنية فقد ورد فيها ذكر آل فرعون مرادا به كل من شاركه في كفره وضلاله وظلمه وبغيه وعمله، فدخل فيه الملأ من قومه الذين هم وزراؤه وأهل الرأي من طبقات أهل دولته، ودخل فيه جنده الذين هم سيوف بغيه، كما فسر إجماله قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)[القصص: 08]، فأدخل الله في مسمى آل فرعون: نفسه، ووزيره، وجنده.

ومن دخول جماعتهم في مسمى آل فرعون أن جمعهم الله تعالى معه في سوء الاعتقاد بقوله سبحانه: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[آل عمران: 11]، وجمعهم معه في سوء عمله وشدة بطشه، فقال تبارك اسمه يمتن على بني إسرائيل: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[البقرة: 49]، وجمعهم معهم في عموم الابتلاء والمحنة وقسوة قلوبهم على الكبر والكفر، فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)[الأعراف: 130–133]، وجمعهم معه في استيجابهم العذاب الأليم فقال عز شأنه: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)[البقرة: 50].

وقد حكى الله تعالى من أحوالهم النفسية ما دل على تشابه قلوبهم وتطابق أعمالهم وصدق ظن أهل الحق فيهم بما ينتظر منهم من كل سوء وفجور، فسماهم تعالى قوما ظالمين، وعجّب نبيّه من عدم تقواهم، فقال تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ)[الشعراء: 10–11]، ثم حكى تعالى مخافة موسى عليه السلام منهم، فقال: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)[الشعراء: 12–14]، وليست هذه المخافة من النبي الكليم موسى عليه السلام خورا عن الدعوة ولا قلة في العزم،

وحاشاه–صلى الله عليه–، وهو القوي الأمين، وإنما هي شهادة حق وصدق من الرجل الذي ربي فيهم وخالطهم وعرف طباعهم، فقام في نفسه العلم بسفاهتهم وجهالتهم، وأنهم قوم بلغ من قلة دينهم وورعهم وعقلهم أن أول مراتب الحكم عندهم القتل وسفك الدم، وأنهم لا يرعون في ذلك من كان له فيهم سابقة ذمة، فكيف إذا دعاهم إلى ما يخلع عنهم ثوب جبروتهم، ويحطُّهم عما ركبوه من العلو الكاذب وارتكبوه من العمل الآثم؟

وقد جمع فرعون وقومه بين الاستكبار والإجرام كما في سورة الأعراف. والاستكبار طريق من طرق الإجرام، حيث لا يرى الإنسان لغيره عليه حقا، بل لا يرى لغيره حقا أصلا، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريف الكبر: "الكبر بطر الحق وغمط الناس"[1]، فإذا سقطت حقوق الخلق من عين المستكبر، استوى عنده حياتهم وموتهم، وسلامتهم وأذيّتهم، وأمنهم وخوفهم، وجوعهم وشبعهم، ثم لم يبق فيه إلا الطبع الحيواني فسلبهم ما في أيديهم وأخافهم في أنفسهم وعدا عليهم في دمائهم وأعراضهم.

ومما يدعو إلى النظر والتفكّر في أسرار القرآن ذكر الله تعالى الحديث عن آل فرعون في سورة آل عمران، فكان من ذلك المقابلة بين بيت الطغيان وبيت الضراعة، وبين بيت الكفر وبين الإيمان، بين بيت المهانة وبيت الكرامة، وبين بيت الملك الطيني وبيت الملك النبوي، فقال تعالى في أول السورة: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[آل عمران: 11]، ثم استرسلت الآيات الدالة على تسليط الله أولياءه على أعدائه، ثم آيات الزينة الدالة على شهوات بني آدم التي تهوي أفئدتهم إليها إذا مالوا إلى طباعهم الطينية كما كان شأن آل فرعون، ثم استرسلت الآيات في الأحكام الشرعية والقدرية على المخالفين، ثم الآيات المعظمة لسلطان الملك العلي سبحانه الذي قهر ملوك الأرض بسلطانه فألبس حلة الملك من شاء وجرّد منها من شاء، وانفرد عنهم سبحانه بتدبير الخليقة بالإحياء والإماتة والرزق، فألزم من كان على نهج آل فرعون الحجة على سلطانه سبحانه. فلما استتمت حجته على البيوت الفرعونية؛ ذكر تعالى البيوت النبوية فقال: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[آل عمران: 33-34]، لتزداد بصيرة المؤمنين بسوء الملة الفرعونية إذا ما قورنت بسير أولياء الله الذين عبدوا الله بالضراعة والتواضع والدعاء، فأعقب عليهم من كل عبادة نعمة متجددة، فأعطى امرأة عمران بعد الدعاء مريم، وأعطى زكريا بعد الضراعة يحيى، وأعطى مريم بعد العفاف عيسى، ونصر عيسى بعد المحنة بالحواريين. وأما الملة الفرعونية فقد أعقبها الله بعد كل سيئة عقوبة، وبعد كل مظلمة انتقاصا، فلما أرادوا أن يعمُّوا أولياء الله بالبطش أخذهم الله الأخذة العظمى واستأصل شأفتهم.

[1]–أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

هامان:[*]

وزير الشؤم، ونصيح السوء، الذي خصه الله تعالى بالذكر في القرآن ليحذّر حال أعوان الظلمة وأيديهم التي بها يبطشون، وسيوفهم التي بحدّها يعتدون، وعقولهم التي بتدبيرها يستكبرون، وقد اجتمع في هامان هذا معاني ما ذكرنا، فلا يذكر في القرآن إلا يدا في الظلم والبغي والكفر، فكان شأنه كشأن من ذكر الله تعالى في قوله: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)[الاعراف: 175-176]، فضرب الله هامان مثلا لمن أوتي من العلم ورفع في المرتبة وسخّرت له الأسباب، فجعل ذلك كله في عمل الشر ومَدد الظلم.

وقد ورد ذكر هامان في القرآن في مقامات دالة على منزلته من دولة البغي، فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)[غافر: 23-24]، وقال أيضا: (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)[العنكبوت: 39]، وانظر إلى هذا الاقتران العجيب الدال على أركان دولة البغي، ففرعون عنوان سلطان الحكم، وهامان عنوان سلطان العلم، وقارون عنوان سلطان المال، فإذا اجتمع هؤلاء الثلاثة على النية الفاسدة والعمل الآثم فقد استوسق لدولة البغي سلطانها واجتمعت لها أسباب عدوانها.

وهامان هو الموكول إليه أمر البنيان الذي هو شهوة الدولة الفرعونية، وهي الشهوة التي دمّرها الله عليهم ليمحو ذكرهم فقال سبحانه: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[الأعراف: 137]، أي ما كانوا يبنون. ولا يوكل إلى هامان أمر البناء إلا مقرونا بنية البغي في الأرض ومحادة الخالق سبحانه، فهو ليس بصاحب عمارة مجرّدة عن المعنى، وإنما هو فيلسوف بناء، له فيما يبنيه غرض وقصد، فقال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)[القصص: 38]، وقال سبحانه: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)[غافر: 36-37]، فأخبر سبحانه أن ما بني على هذه النية والقصد فعاقبته إلى تباب وهلاك وتدمير، وأنه لا يبقى منه إلا سوء العمل الذي يجزي الله عليه يوم القيامة.

وفي سياق سورة القصص إشارة إلى أن هامان كان أيضا من القتلة سافكي دماء الولدان من بني إسرائيل، ولذلك وسّط الله ذكره في شأن قتل الولدان بين فرعون وهو الآمر، والجنود وهم المأمورون المباشرون، فلعل في هذا إشارة إلى أن هامان هو المشير أو المدبّر، فقال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)[القصص: 04-08]. فذكرُ هامان في سياق الحذر، ثم ذكرُه في سياق إجراء حكم القدر عليهم بأن يكون نجيُّهم هو سببَ هلاكهم؛ دليلٌ في الموضعين على أن له يدا وشركة في أمر التقتيل، والله غالب على أمره.

***امرأة فرعون:**

السيدة التقية النقية التي مدحها الله في كتابه، وضربها مثلا للذين آمنوا، بحسن الاعتقاد، ومباعدة مذهب الكفار مع ملابسة الحال والدار، والالتجاء إلى عصمة الملك سبحانه مع انقطاع الحيل، والطمع فيما عند الله على سعة ما كانت عليه من الدنيا في ملك فرعون، وأشار القرآن إلى أنها أُيِّدت بالتوفيق وسداد النظر حين توسّمت في موسى عليه السلام الخير، فنابها منه حسن ما نوت وسداد ما قصدت، فقال تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[القصص: 09]، فأكرمها الله حين أحيت النفس الزكية المحرمة بأن أحلّ عليها بركاته، فأقرّ به عينها وهدى به قلبها وأنار به سبيلها ونفعها به في الدين والدنيا.

وقال تعالى منوّها بها ورافعا لذكرها: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[التحريم: 11]، فبيّن سبحانه ما هدى قلبها إليه من الضراعة إلى الله المنافية لكبر قومها، وطمعها فيما عند الله المنافي لاستغناء قومها، وعياذها بالله من عمل قوم فرعون وظلمهم وبغيهم، وفي ذلك كله إخبار منه سبحانه بأن للمؤمن ذمته التي يستقل بها إيمانا وعملا، وأنه إذا غُلِب على أمر مخالطة المشركين والظالمين فأنكر عليهم أمرهم بما يقدر عليه، ولو بكراهة أمرهم والرغبة في النجاة منهم، فقد قضى فرضه من البراءة من الشرك وأهله، قال ابن القيم رحمه الله: "ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضرّه شيئا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية العاصي لا تضر المؤمن المطيع شيئا في الآخرة، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة، فلم يضرّ امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين"[1].

[1]-إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، (321/2-ط مشهور).

*مؤمن آل فرعون:

آية الله في أهل الظلم وحجته على الكفرة، من أخرجه الله من جماعة المشركين وهداه إلى سبيل المؤمنين، ورزقه من المعارف الدينية والأنوار الإيمانية ما جعله حجة لنفسه ومقباسا لقومه لو كانوا يهتدون. أبهم الله اسمه في كتابه، وحكى قوله وموعظته شهادة بأن العبرة بصحة المعتقد، وأنه كم لله من ولي في الخفا، فكان في ذلك نظير صاحب يس الذي أبهم الله اسمه ورفع ذكره وبشّره في الدنيا بالبشارة العظيمة لما حمل نفسه عليه من دعوة الناس إلى اتباع الأنبياء، وزاد عليه مؤمن آل فرعون بأن جاهد في الله جهادا عظيما حين عرّض نفسه لقومه على ما هم عليه من السفاهة والجهل والعدوان على الدعاة والمصلحين.

وفي ذكر مؤمن آل فرعون دعوة إلى النصفة في النظر إلى دولة الظلم والبغي، وأنه ربما يكون فيها من هو مغلوب على أمره خائف على نفسه، عاجز عن مفارقة قومه مع ما هم عليه من الشرك أو البغي، وهو مع ذلك مشهود له بالإيمان موعود بالنجاة والغفران بقوله تعالى: (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)[غافر: 45]. وفي كلام مؤمن آل فرعون معالم المعرفة بالله والعلم بأيام الله وفعله بالأمم السابقة بقوله: (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)[غافر: 31]، وقوله: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)[غافر: 33]، والعلم بالتوحيد والنبوات والمعاد في قوله: (وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)[غافر: 32-33]، وتحذير قومه من سنن الله في الدول والأمم الظالمة في قوله: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ)[غافر: 30-31]، وتبيينه أحكام الحسنة والسيئة والثواب والعقاب في قوله: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)[غافر: 40]، وختم كلامه بالبراءة مما هم عليه من الكفر، وتفويض أمره إلى الله فيما أعجزه من مفارقتهم ومنابذتهم في قوله: (وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[غافر: 41-44]

وفي خبر مؤمن آل فرعون عبرة عظيمة لأمر دول الظلم والبغي في آخر الزمان، وهو عجز بعض أهل الإيمان عن مفارقتها لغلبتها على الرعية وإحاطتها بالخلق وتضييقها على الصالحين، فبيّن الله تعالى أن أمثال هؤلاء لا يسقط عنهم فرض النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكراهة ما عليه

أقوامهم من الظلم والبغي حتى يجعل الله لهم مما هم فيه فرجا ومخرجا، أو يُعذِروا إلى ربهم إذا حضرهم الموت وهم مغلوبون على أمرهم.

*السحرة:

عصبة فرعون التي بها يستقوي على دعاة الحق، وهم أهل العلم في دولة الظلم والبغي، وُكِل إليهم أمر الجدل بالباطل ورد دعوة الأنبياء وإضلال الناس عن الحق وصدهم عن سبيل الله، وهم في هذه الدولة على مراتب، ولذلك لما ضاقت على فرعون وملئه دائرة الحق، استعانوا (بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)[الأعراف: 112]، وفي الآية الأخرى (بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)[الشعراء: 37] والصيغة دالة على شدة السحر ومداومة عمله وقوة المعرفة به.

وسحرة فرعون مبثوثون في أقطار ملكه، لحكمة نذكرها في موضعها إن شاء الله، وقد ذكر الله تعالى من شأنهم أنهم إنما ينصرون دولة البغي بعلومهم وسحرهم لأمرين: المال والجاه، كما قال سبحانه: (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)[الأعراف: 113-114]، وأن من أهم أمورهم إليهم بقاءَ الناس على تقديمهم وتعظيمهم، وانفرادَهم بعلم السحر الذي أوجب لهم المنزلة، كما ذكر تعالى استقرارَ الحسد في قلوبهم مانعا لهم من أن يرضوا بتقدم غيرهم عليهم ولو بالحق الأبلج، قال تعالى يحكي حالهم: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى . قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)[طه: 62-64]. فضعف نخب العلم في دولة البغي محلُّه في خوفها من زوال جاهها وذهاب تعظيم الناس لها، مع ما في ذلك من فوات المصالح الحسية من مال ومتاع ومِلك ولذات.

وقد وصفهم الله في حال كفرهم بوصفين عظيمين هما الإفساد والإجرام، فالساحر مفسد للتصورات والاعتقادات، مجرم في حقوق الخلق بما صدهم عن الحق وحرفهم إلى الباطل، قال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)[يونس: 80-82]. وسنخص طائفة السحرة بالحديث عند مناظرة موسى عليه السلام ونبسط شيئا من تقلب أحوالهم واختلاف مقاماتهم وعلل ذلك بإذن الله.

*الحاشرون:

ومن خدم فرعون قوم ذكروا في القرآن بعمل واحد، وهو حشر من يريده من رعيته، يرسلهم في أرجاء ملكه فيجمعون إليه من تقوم الحاجة إليه كما هو شأن جمعه السحرة، قال تعالى: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)[الأعراف: 111-112]، وقال سبحانه: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)[الشعراء: 36-37]. وربما كان إرسالهم يجمعون الناس ليُعلموهم بما اقتضته سياسته من نبأ أو قرار أو سياسة، كما قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ)[الشعراء: 52-56].

وفي هذا اللفظ إشارة إلى ما كان من سياسة فرعون قومه ومن تحت سلطانه وحكمه، وذلك أن الحشر هو السَّوق العام الجامع، الذي يُعجَل فيه المحشورون عن أعمالهم وأحوالهم، وذلك شأن الجبارين الذين يرون الناس لهم خولا، ولأهوائهم عبيدا وخدما، وتلك من فرعون سيرة معلومة دل عليها القرآن، قال تعالى: (فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)[النازعات: 21-24].

*الجنود:

عسكر البغي وسيوف العدوان، الذين جمع الله إليهم رأسهم باسمهم فقال سبحانه: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)[البروج: 17-20]. وقل أن يأتي ذكرهم في القرآن إلا وهم مقرونون في العذاب برأسهم وحاكمهم، قال تعالى: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)[القصص: 39-40]. وقال سبحانه: (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)[الذاريات: 38-40].

وما ذكر جنود فرعون في القرآن إلا وسيوفهم مجرّدة للبغي على المستضعفين، فذكرهم تعالى في شأن تقتيل أبناء بني إسرائيل كما في سورة القصص، فقال سبحانه: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)[القصص: 04-06]. ثم ذكرهم في اتباع موسى وبني إسرائيل

في غير موضع من القرآن، كما قال سبحانه: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا)[يونس: 90].

وفي نظم القرآن إشارة إلى أن أمر الجنود إلى فرعون، وأنهم له تابعون، ولأمره منفذون، وذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)[طه: 77-79] فإن الباء في قوله تعالى: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) مفيدة لمعنى المصاحبة، ودالة على سلطان فرعون على جيشه، وولاء جنده له، حتى أوردهم حتوفهم بالرأي الغوي والكبر العصي، فكان سبب ضلالهم في الدين وهلاكم في الدنيا وعذابهم يوم القيامة، فألمح القرآن إلى طاعتهم له فيما جرّ عليهم البوار بقوله: (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى).

*__العبيد: بنو إسرائيل:__

وهم الطائفة المستضعفة، والأمة المستعبدة، الذين أدخلهم الله أرض مصر آمنين على زمان يوسف عليه السلام، ثم دالت عليهم الدول وتقلبت بهم الأحوال إلى أن استرقّهم فرعون وقومه، فجعلوهم عبيدا للسُّخرة، وجمعوا عليهم إلى شدة العمل المذلة والمهانة، ثم بلغوا بهم غاية العذاب فسفكوا دماءهم وامتهنوا حرمهم، قال تعالى: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[البقرة: 49]. وكان استعبادهم لهم جامعا بين استرقاق الأبدان وتقييد النفوس بالمذلة، كما قال تعالى يحكي محنتهم: (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[الشعراء: 22]، وقال تعالى في حكاية ما هو أشد من ذلك: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)[المؤمنون: 45-47]. وهي عبودية المهانة والمذلة والخدمة.

وكان أمر فرعون مع بني إسرائيل قائما على التمييز والاستضعاف، كما حكى الله تعالى فعله في القرآن بقوله: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[القصص: 04]، وكانت سياسته فيهم (سوء العذاب) أي أسوأ أضرب التعامل إمعانا في استنزالهم وإذلالهم، وحيثما ذكر الله تعالى ذلك في القرآن مثل بأمرين لا تصبر لهما النفوس السوية، وهما تقتيل الولدان واستحياء النسوان، فالأول فيه تمام المنافاة للرحمة، والثاني فيه تمام المنافاة للكرامة.

فمن أجل ذلك؛ كان من مقاصد إرسال الله موسى إلى فرعون أن يحرر بني إسرائيل من رق العبودية ومهانة الخدمة وألم العذاب، كما قال تعالى: (وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[الأعراف: 104-105]، وقال تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)[طه: 47]، ولذلك كان في إهلاك فرعون منّةٌ خاصة على بني إسرائيل لما فيه من إطلاقهم من أسر العبودية والامتهان، كما قال تعالى: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[الأعراف: 137]. ولنا إن شاء الله مزيد بيان لسياسة فرعون في بني إسرائيل وشرح لأحوالها.

2-المكونات المكانية لدولة فرعون:

*‏**مصر**: ذكر الله تعالى أن ملك فرعون كان على مصر، وهي البلد المعروف بنيله، كما قال تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[الزخرف: 51]، وهي مصر يوسف التي ذكر الله في قوله: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)[يوسف: 21]، وهي التي دخلها يعقوب عليه السلام وأبناؤه، كما في قوله تعالى: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)[يوسف: 99]. وهي المرادة على بعض أقوال المفسرين في قول موسى عليه السلام لقومه حين استقلوا المن والسلوى: (قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ)[البقرة: 61]، أي إن كنتم مللتم حياة الأحرار، واشتقتم إلى عيشة العبيد فارجعوا إلى مصر فإنكم لاقون ما ألفتموه من طعام المذلة والمهانة.

*‏**المدينة**: توحي سياقات القرآن الكريم إلى أن المدينة المذكورة في قصة موسى وفرعون هي العاصمة، وهي محل سكنى موسى عليه الصلاة والسلام، وسكنى الملأ من آل فرعون، كما أن وقوع الواقعتين بها يدل على أن طائفة من بني إسرائيل كانوا يساكنون الملأ من آل فرعون بعاصمتهم، إما للخدمة وإما للمجاورة، قال تعالى: (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ)[القصص: 15]، وقال: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)[القصص: 19]، وفي قوله تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)[القصص: 20] إشارة لطيفة إلى اتساعها وامتداد عمرانها، كما هو مشهود بالحس من آثار مدائن فرعون، من جهة الإخبار عن مجيئه من أقصاها، ومن جهة إخباره عن سعيه وهو الاشتداد في المشي ليدركه، فهاتان إشارتان لغويتان إلى اتساع البنيان وتباعد الأطراف والله أعلم.

وهذه المدينة المذكورة هي محل الحكم والسلطان، فهي في محل "الأرض" في جملتها، دل عليه قوله تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)[الأعراف: 123]، هذا مع قولهم: (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى)[طه: 57]، والأرض في عرفهم اسم لبلاد مصر كما سيأتي، فكانت مدينة فرعون عنده مركز دولته وعماد حكمه وسلطانه، وهذا شأن الملوك في استعصامهم بمحل حكمهم وسلطانهم، وإذا صح العهد في المدينة المذكورة؛ فربما كانت محل الحكم بأرض مصر من الزمن المتقدم، فقد ذكر الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام قوله: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[يوسف: 30].

*ا**لمدائن**: دل القرآن على أن ملك فرعون كانت فيه مدائن، قال تعالى: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)[الأعراف: 111]، وقال تعالى: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)[الشعراء: 36]، وقال سبحانه: (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)[الشعراء: 53]، وكل هذه الآيات في سياقاتها تدل على امتداد ملك فرعون، وأنه كانت فيه مدائن عامرة، فإن المدينة في القرآن ترد غالبا للدلالة على محل العمران، كما دلت على أن هذه المدائن كانت بساكنتها آهلة، حتى إنه كان يرسل فيهم حاشرين، لجمعهم مرة، ولإعلامهم وإغرائهم مرة، ولاستنفارهم مرة، وفي سياق آيات سورة الشعراء ما يدل على عمران هذه المدائن، وذلك قوله تعالى: (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ . فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)[الشعراء: 53-58]، فإن الضمير في قوله تعالى: (فأخرجناهم) عائد على جميع من نفر مع فرعون حين استنفرهم، فدل ذلك على أن ما أُخرِجوا منه كان نعمة مشتركة بين مدائنهم على اختلافها واتساعها، والله تعالى أعلم.

3-دعائم دولة فرعون:

إن لكل دولة عمادا تقوم عليه، وأركانا تستند إليها، وبها تقوم على العدل أو على الظلم، فإن نظرتْ في أركانها إلى النعمة وشكرَتِ المنعم كانت لها أركانُها موجبات رحمة وأسباب توفيق، وإن استغنت بها وطغت فيها، كانت لها بمنزلة ما يمد الله به للظالم ليزيد في طغيانه ويستحق عقوبته. والذي وقفت عليه من دعائم الدولة الفرعونية أربعة أمور عظام هذا بيانها:

*الحاكم: مدار دولة البغي، وعماد سلطان الجور، المتحد في تصوّره الفاسد بذاته مع سلطانه: يَثبُت بوجوده ويزول بانعدامه، وقارئ القرآن إذا تأمل كلام فرعون وقف على كثرة إحالته على نفسه، كقوله: (يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)[القصص: 38]، وقوله: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)[النازعات: 24]، وقوله: (يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)[الزخرف: 51-52]، وفي الآية الأخيرة إشارة بتقديم لام الملك في قوله: (أليس لي) إلى اعتناء القائل بنفسه وحرصه على التنويه بمقام ملكه.

وحكم فرعون حكم قهري ملوكي عضده صاحبه بالدعاوى المستعظمة من ادعاء الألوهية والربوبية، ليوهم رعيته أن طاعته نجاة الأرواح، وأن التسليم لحكمه دين للبشر، وله بعد ذلك في خاصته شورى ونظر، إلا أنه دُولة بين أهله وعشيرته، فحكمه على الحقيقة حكم عنصري، مستحَقٌّ باشتراك الجنس، واجتماع المصالح الخاصة، ولا تعلق له بإقامة العدل أو النظر في مصالح الخلق.

والحاكم الباغي واجهة الظلم وحامل لوائه، تتستر خلفه الأهواء والرغبات، ويحتمي به كل ظالم باغ يرخّص لنفسه وجوه الظلم والعدوان، فاستحق بذلك أن يكون رائد قومه إلى النار، ولذلك قال تعالى في شأن فرعون: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)[هود: 96-97].

*الأرض: ولها في دولة فرعون أعظم القدر، وهي في عرف القرآن اسم لأرض مصر خاصة، كما جاء في قوله تعالى: (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى)[طه: 57]، وقوله: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[الأعراف: 109-110]، وقوله سبحانه: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ)[الأعراف: 127]، وأرض مصر في نظر دولة فرعون ملك واكتساب، لا استعمار واستخلاف، فكأن تملكهم لها بحق الطبيعة الأولى، ليس محل زوال ولا تحوّل، ولا تعلق لبقائه بصلاحهم، ولا لزواله بظلمهم وبغيهم، ولذلك فقد كان من عاقبة هذا التعلق العظيم بالأرض والارتباط بها أن جعل الله من عقوبة آل فرعون تحويل وراثتها إلى المستضعفين من بني إسرائيل، فقال تعالى: (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا

جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)[الأعراف: 129]، وقال سبحانه: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)[الأعراف: 137].

وهذا التعلق الضيق بأرض مصر كان أحد موجبات اعتقاد الألوهية والربوبية في فرعون، فإنه ادعى ما ادعاه على ما وقع تحت عينه ويده وسلطانه، فاستخف لذلك ضعاف النفوس خفاف العقول، فلما ناظره موسى عليه الصلاة والسلام حاجّه بأن ملك الله أوسع مما يحسبه من ملكه، وأن الإله الحق هو الذي تخضع السماوات والأرض لسلطانه، فقال تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)[الشعراء: 23-28].

*الثروة: ومن دعائم دولة فرعون التي بها يستقوي ويستكثر: المال والثروة، وهي مادة بغيه والتي يعلي بها عمارة استكباره، ويشتري بها ذمم زبانيته، والثروة حجة الطغاة والمفسدين والضالين على استحقاق الملك، كما قال تعالى في شأن الملأ من بني إسرائيل وطالوت: (قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ)[البقرة: 247]، وقال فرعون: (يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[الزخرف: 51].

وثروة آل فرعون صنوف من الرزق، منها ملك الأرض الطيبة المخصبة المنبتة لأصناف الثمار والزروع، الممدودة بالماء العذب من العيون والأنهار، الملتفة الجنات الماتعة للعيون، كما قال تعالى: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)[الدخان: 25-28]، ومنها كنوز الأرض من الذهب ونحوه من نفيس المعادن المتخذة للزينة والتملك والتجارة، قال تعالى: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) [الشعراء: 57-58]، ومنها العمران المحكم وآيات البناء المؤنقة، التي نسب الله إليها فرعون فقال: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)[ص: 12]، وهي الأبنية المحكمة الكثيرة.

وكان من امتحان الله تعالى فرعون وقومه وتعذيبه إياهم أن أخذهم بالتنقص في أموالهم وثرواتهم التي كانوا بها يستكثرون وعلى الباطل يستقوون، فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[الأعراف: 130]، وقال في الأبنية: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[الأعراف: 137]. ثم عمّهم بالعقوبة العامة التي منعهم بها الانتفاع مما بأيديهم من الخير والثروة، فقال تعالى: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا

عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[يونس: 88-89]. فاستجاب دعاء نبيه في طمس الأموال الفرعونية، وهو زوال المنفعة بها مع بقاء صور أعيانها، وهي آية إلهية على أن الذي بيده النفع والضر هو الله وحده، وأنه سبحانه إذا أراد أن يسلب المنافع خواصها والأموال قيمتها، فإنه لا راد لقضائه.

***الرعية**: ورعية فرعون طبقات مميَّزون شيعا، لئلا يتظاهروا عليه، قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ)[القصص: 04]، فمنهم آله الأقربون، وملؤه المقربون، وأهل خدمته كالسحرة والحاشرين، وجنوده أهل حربه، وعامة رعيته، والمستعبدون المستذلون وهم بنو إسرائيل، ولكل طائفة من هذه الطوائف مرتبة من الخدمة ومنزلة في الدولة، وقدر من العظمة، فمنهم الذين يقاسمونه السلطان، ومنهم الذين يرضون منه بالمال والمنزلة بين الناس كالسحرة، ومنهم الذين طوّعهم له بتمكينهم من رقاب المستضعفين وهم جنده، ومنهم عامة الرعية الساكنون إلى الدعة المتغافلون عن المظالم ما لم تقع عليهم، وبأدنى المنازل العبيدُ المستضعفون الذين يقع عليهم الظلم والعسف والسُّخرة.

4-خطط دولة فرعون:

ذكر الله تعالى في كتابه سياسات دولة فرعون ومبانيها، وهي التي سماها سبحانه في غير موضع من كتابه دأبا، أي عادة مستمرة، كما قال سبحانه: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[الأنفال: 52]. وعملُ آل فرعون وسياستهم دأب دائم وسنة في الظالمين ماضية، وقد سُبقوا بها، إلا أنهم فجروا في بلوغهم غايتها حتى صاروا مضرب مثل فيها.

ونحن نخص بالذكر منها أربعة عليها الاعتماد في سير الدول والممالك، وهي السياسة، والمعرفة، والإعلام، والقوة. فالسياسة هي طوق إدارة دعائم الدولة من مال ورجال، والمعرفة هي باعث الاختيار فيما تساس به الأمم، والإعلام يحمل الرعية على الاستجابة لأغراض ما يساسون به من قوانين الملك، والقوة تزعج من كسل منهم عن الاستجابة لسياسة الملك، وتردع من ردّ سياسة الملك أو عارضها، وترهب من أظهر عداوتها.

أولا: السياسة:

السياسة فن إدارة ذي السلطان لسلطانه، فهي بهذا الاعتبار وجوه وطرائق، يؤسسها المبدأ والاعتقاد أو تدعو إليها الحاجة وتفرضها النوازل. ولفرعون في ملكه سياسات شتى، وهي وإن اختلفت في بعض وجوهها الظاهرة فإنها تجتمع في تأسيسها على الظلم والجبروت والإفساد في الأرض. ونحن نذكر منها معالم، منها ما سبقت الإشارة إليه، ومنها ما نستأنف بيانه إن شاء الله تعالى.

***الدولة العنصرية:**

دولة فرعون مبناها على تحكيم آل بيت الحكم في رقاب الناس، وتقريب الناس بحسب اقترابهم في أصل الجنس، يجمعهم أصل الدم، ويفرّقهم عن غيرهم من ساكنة البلد، دل عليه الآية المتقدمة: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[القصص: 04]، ويفهم ذلك من تفريق فرعون بين قومه وشيعته وغيرهم، فقال تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[الزخرف: 51]، وذكر عنهم في ذكرهم بني إسرائيل: (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)[المؤمنون: 47].

*التآمر والجريمة المشتركة:

التآمر على الشر من سمات دولة البغي، فإن أهل الشر يجتمعون على الإثم والعدوان كما يجتمع أهل الخير على البر والتقوى، لما جبلت عليه النفوس من مشاركة أشباهها ومؤالفة أمثالها، والشر في نفوس أهله يتداعى، والنيات فيه تتوافق، وإذا اجتمع عليه الجماعة هان عليهم بالتواصي والتعاطي، حتى ربما تفسد فيهم الطباع وتنتكس الفِطر فيباشرونه في الجماعة كأنه مبرة أو عبادة.

وقد كان من دأب آل فرعون الاجتماع على الشر والمشاركة فيه، وذلك من أسرار عبارة القرآن في وصف أحوالهم بإسناد أعمال الشرور والفساد إلى ضمير جماعتهم، كقوله تعالى: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)[البقرة: 49]، استوى في ذلك من أشار، ومن أمر، ومن خطط، ومن باشر، ومن رضي. ومن دأبهم الائتمار على الجريمة تسهيلا لأمرها، وتمهيدا لأمر مباشرتها، كما قال سبحانه: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)[القصص: 20]، أي أنهم يتشاورون في أمر قتلك ويحث بعضهم بعضا على ذلك، وفي قول هذا المحذر (فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) تنبيه عجيب، وهو أنه حثه على الخروج وعدم الثبوت لهم، لأن مبنى سياستهم على المسارعة إلى سفك الدم، وترك التثبت والنظر، وأن من كان على مثل هذه الحال لم يُركَن إلى مظنونِ عدله أو تحرّيه، ولم يوثق معه بسابق عشرة أو دالَّة محبة، فهذا معنى وصفهم بالظلم في دعوة موسى عند خروجه: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[القصص: 21].

ومن ائتمار آل فرعون على سفك الدم ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[غافر: 26]، فعلم هذا الشقي بما جرت عليه سياسة إجرامه أن إشراك أهل مشورته وأرباب دولته في جريمته أدعى لتثبيت حكمه، وأنفى لأسباب الانتقاض عليه، وما كان الشقي لينظر من قومه الإذن ليعدو على نبي الله موسى عليه السلام، ولكنه عمل بمقتضى سياسة دولته، فإن عموم الشر واشتراك الناس فيه باعث على تجانسهم في الإثم، وإذا عمّ الناسَ سواد المعصية عميت أبصارهم عن بياض الطاعة، وخرست أفواههم عن النهي عن المنكر، وفي الآية بحث آخر يرد في موضعه إن شاء الله.

*سياسة الانتقاء والكيل بمكيالين:

شأن دولة البغي إذا عقدت سياستها على ما يهواه الحاكم -لا على ما يقتضيه العدل- أن تنتقي أحكام سياستها، فتحتج بالحسنة على السيئة، وتخفي الإساءة العظيمة في طي الإحسان اليسير، فإذا جرى منها قليل الإحسان امتنّت به غاية الامتنان، وسدت به أفواه من نبهها إلى ظلمها وكشف عن

سوء صنيعها فيما عدا ذلك، وجعلت الزلة ممن ضادّها عنوان خراب العالم، وعميت عن أضعافها في القدر والمعنى مما تقترفه هي، ومن معالم ذلك أن موسى عليه السلام لما جاهر فرعون بالدعوة إلى الله وكف الظلم عن بني إسرائيل، حاجّه فرعون بصنيعه المفرد فيه فقال: (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[الشعراء: 18-19]، فعظّم منّته على موسى بالتربية حتى جعلها عنوان تقواه، وعظم واقعة موسى عليه السلام من غير تحقيق لها ولاتحرٍّ فيها، حتى جعلها عنوان كفر النعمة وجحود المنة، فألهم الله نبيّه كشف هذه السياسة الزائفة في قوله عليه السلام: (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[الشعراء: 20-22]، أي: فررت منكم لغلبة ظن الظلم بكم لما جرت عليه عادتكم في غير قومكم، ولو غلب عندي معنى العدل في دولتكم لثبتّ لامتحانكم، ومع ذلك فليست نعمتك الممنونة علي بالماحية عنك أن عبّدت بني إسرائيل وامتهنتهم، وأين يقع الإحسان إلى رجل واحد من تعميم الظلم والقهر والعسف على عشيرته بتقتيل الولدان واستحياء النساء.

***سياسات الأمن والاقتصاد:**

ومن عجائب دولة الظلم والبغي أن تجري أحكامها على التمييز حيث ينبغي أن تطّرد الحقوق، وحيث ينبغي أن تعطل المصالح المظنونة للمفاسد المتيقنة، وذلك في قوله تعالى في غير موضع من كتابه: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[البقرة: 49]، فإن داعي فرعون إلى تقتيل الولدان الحرص على استمرار ملكه حين أنذره المنجمون بأنه يولد في بني إسرائيل مولود يكون زوال ملكه على يديه، وكان من جنسه قتل النسوان لو أنه أراد تعطيل الأرحام جملة، ولكنه أفكر في عاقبة ذلك على الخدمة فاستبقى نساء بني إسرائيل للمهنة ونحوها، ومن جنسه ما روي من أنه حين حذّره أهل مشورته من انقطاع نسل العبيد وسقوط تبعات المهنة على القبط، انتهى إلى إقرار تقتيل الولدان عامًا واستبقائهم عامًا، مع أن حرمة الدم واحدة، ولكن الظالم ينظر إلى بني آدم كما ينظر إلى البهائم، فلا يعتبر فيها إلا ما يزول عنه به ضرره وتتحقق منفعته، والله تعالى يسوقه بتدبيره الجائر ونظره العائر إلى مصرعه، فسبحان ذي الملك الذي لا يزول.

***سياسات المرحلة والتوبة الكاذبة:**

قد تضطر دولة البغي اضطرارا إلى الإذعان لدين الحق الذي تكفر به، إذا وقعت تحت سلطان الحاجة، وقد يظهر على أربابها المتغلبين عليها من الاستكانة والضعة والضراعة ما يتوهم منه المتوهم أنها توبة وأوبة، إلا أن الوحي يعلمنا ألا نلقي بأنفسنا في هذا الوهم سريعا، فإن سنة دولة البغي أنها تبيع

دينها لتشتري نجاتها، ثم ما تلبث إذا حصلت المرغوب أو جاوزت المرهوب أن ترجع سيرتها الأولى، ولكن هذا الفعل الناكث هو أوان الإيذان بزوالها، فإن مخادعة الله سبيل الوقوع في شراك الخديعة، والمكر بأولياء الله سبب حيق المكر السيئ بأهله، فدولة البغي إذا نهجت هذا النهج الخبيث المبني على الاستهزاء واستغلال الدين بلغت أخزى دركات الضعة الأخلاقية وانحلال القيم، وليس وراء هذا إلا الدمار. وسبحان الله القائل في أعظم البيان: (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)[الأعراف: 134-136]. فسمى الله تعالى فعله بهم انتقاما، وعلله سبحانه بعلتين كاشفتين عن الحقائق الكامنة في هذه السياسة، أما أولاهما فهي علة التكذيب، الشاهدة بأنهم مكذّبون بأصل الدين، نافون أن يكون الواقع عليهم من الرجز جزاء بأعمالهم، ومن كانت هذه حاله لم يكن على الحقيقة تائبا، لافتقاده شرط الندم على المعصية، وشرط العزم على عدم المعاودة، وأما العلة الثانية، فهي الغفلة، أي غفلتهم عن أن الله تعالى عالم بمكنون صدورهم وخفي ما عقدوا عليه قبيح نياتهم، وغفلتهم عن أعظم من ذلك، وهو أن من أنزل عليهم الرجز أولًا قادرٌ على أن ينزله عليهم آخرا، بل قادر سبحانه على أن يضاعفه عليهم ويجعل فيه استئصالهم.

***ضعف السياسة وقلة الحيلة:**

إن فعل فرعون في بني إسرائيل في أول أمرهم وآخره دال على قصور نظره، وضيق عطنه، وأنه لا يحسن من سياسة الأزمة عند استشعار الخطر إلا التقتيل والتشريد، فإنه حين أنذر بزوال ملكه على يد غلام منهم فزع إلى السيف، فقال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[القصص: 4]، فلما نفذ قضاء الله بنجاة موسى عليه الصلاة والسلام وإرساله إليه، ورأى أن قدر الله ماض فيه، لم يهده هواه إلى غير ما كان منه أولا، فعاد سيرته الأولى غير متدبّر في السير ولا ملاحظ للسنن ولا معتبر في المقادير، ولا عاقل أن الله عز شأنه لا يغالَب ولا ينازَع، قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)[الأعراف: 127]. وقال سبحانه: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[غافر: 25-26].

فسياسة فرعون عند الغلبة سياسة واحدة، هي قتل النفوس، وإزهاق الأرواح، وتعذيب الأجساد، وانتهاك الحرم، وامتهان الكرائم، وإرهاب الخلق وإخافتهم وتهديدهم، فلا يأمنون معه مخالفين ولا موافقين، فقال سبحانه: (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)، وحين حاجّه موسى بالبينات فحجّه، رجع إلى ضيق سياسته فقال: (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)[الشعراء: 29]، ومن كانوا معه على موافقة هواه-كالسحرة-، خالفوه لما علموا الحق، فما أنظرهم ولا باحثهم ولا داهنهم، بل سار فيهم سيرته في أعدائه، فحكى الله عنه قوله: (آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)[الشعراء: 49].

ولكن سياسة الإخافة عنوان خوف عظيم كامن في نفوس الجبابرة، ليقينهم بأن الحق غالب ولو بعد حين، يظهر في فلتات كلامهم، وفي أثناء خلواتهم بأهل سرّهم، وهو السابق في قول فرعون: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[غافر: 26]، وفي قول الملأ من قومه: (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ)[الأعراف: 127]، فهذا إغراء من يستشعر الخوف على نفسه وخشية أن يذهب عنه زينة دنياه. ومن معالم هذا الخوف هرعهم إلى جمع أنصارهم من السحرة والاستكثار منهم لما داخل نفوسهم من خشية وقوع الغلبة عليهم، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)[يونس: 79]، فلم يكفه منهم أعلمهم ولا أقربهم ولا أكبرهم ولا بعضهم، وما رضي حتى حشر إليه جماعتهم من أقاصي بلده، فهذا فعل من غلب الخوف على قلبه واستولى على فؤاده، والله غالب على أمره.

*الحجاج الكاذب:

يوهم حكام دولة البغي أنهم على الحق، وأنهم من أمرهم على يقين، وإذا دعوا إلى المناظرة وقراع الحجة بالحجة أظهروا القبول والمبادرة، وعقدوا قلوبهم على أنهم إن ظهروا على أضدادهم فذاك المبتغى، وإن ظهر عليهم أضدادهم خوّفوهم وأرهبوهم، والتمسوا لهم ما يردُّون به ظهور حجتهم عليهم، إمامهم في ذلك إبليس لعنه الله في قوله لآدم عليه السلام وهو في طينة الخلق: "لَئِنْ سُلِّطْتُ عَلَيْكَ لَأُهْلِكَنَّكَ، وَلَئِنْ سُلِّطْتَ عَلَيَّ لَأَعْصِيَنَّكَ"[1]. وما زالت هذه سنة الظالمين في قبول الحق إن كان لهم وردّه إن كان عليهم، كما قال تعالى في شأن المنافقين: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)[النور: 48-49].

[1]-أخرجه ابن جرير في تفسيره(484/1-ط هجر) عن ابن عباس.

وقد ذكر الله تعالى هذا من شأن فرعون فقال تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)[الشعراء: 23-29]، فكان بدء أمر فرعون مع موسى يوهم الاستفهام والنظر، فلما جاءه البيان جنح إلى التعجب والتعجيب، فلما أزال عنه موسى عليه السلام وساوسه بالحجج مال إلى السخرية والاستهزاء، فلما رأى من نبي الله كمال العقل وثبات الرأي، منعه كفره من الإيمان، وكبره من الإذعان، فرجع إلى سيرته التي سبق بيانها وهي الترهيب والتخويف، وتلك حيلة العاجز وحجة الجاهل، والله المستعان.

ثانيا: المعرفة:

لا بد لكل دولة من معرفة تكون مصدر سياستها، فمنها العلوم التي هي مصادر عقائدها، ومنها العلوم المستعملة في أمر دنياها، وقد دل القرآن الكريم على صنفين من علوم آل فرعون.

***العلم بالله:**

دلّ قوله تعالى في آل فرعون: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)[النمل: 14]، على أن ما جحدوه ونفوه من أمر الله تعالى الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام، إنما جحدوه كبرا وعلوا، لا جهلا، وقد قرر موسى عليه السلام فرعونَ معرفتَه بأصل الرسالة، قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)[الإسراء: 102]، وبهذا يعلم تفسير التناقض بين قول فرعون لقومه: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)[النازعات: 24]، وقوله: (يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)[القصص: 38] المقتضي لدعوى الألوهية والربوبية، وبين قوله: (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)[المؤمنون: 47] المقتضي للمماثلة البشرية. ويمكن أن يكون الحديث الدائر بين أهل السلطان المتآمرين على الرعية بالحق، فإذا برزوا إليهم خاطبوهم بدعاوى الألوهية والربوبية، كما هو شأن بني إسرائيل فيما حكاه الله عنهم: (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[البقرة: 76].

ويُعلم من هذا الوجه أيضا أن قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)[الشعراء: 23] سؤال تعنيت واستكبار لا سؤال استفهام، وكذلك كل ما جاء في معناه في القرآن كقوله تعالى: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى)[طه: 49]، وهذا شأن المستكبرين في تظاهرهم بإنكار ما هم به عالمون، وقد ذكر الله تعالى عن مشركي العرب نحوا من هذا في قولهم: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)[الفرقان: 60].

***العلم بالنبوات:**

ومما يتعلق بالعلم بالله، ما حكاه الله تعالى عنهم مما يفيد علمهم بفعله سبحانه في الأمم السابقة، وهو يقتضي معرفتهم بالنبوات، ومقتضى الرسالة والتكليف، وقد جاء ذلك مفصلا في خطاب مؤمن آل فرعون لقومه، في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)[غافر: 30-31]، فإن هذا دال على أنه قد بلغهم أخبار هذه الأمم المتقدمة عليهم، وأن ما جرى عليهم إنما جرى بكفرهم بآيات الله ورسله وبيناته. ثم ذكَّرهم المؤمن بما هو أقرب إليهم زمانا ومكانا، وهو بعث يوسف عليه السلام إليهم، وأن هذا الأمر كان في أسلافهم الأقربين حتى أسنده إليهم، فقال تعالى يحكي قوله: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)[غافر: 34]. ثم ناقضوا هذا التقرير بأن أنكروه جهرة لئلا يقيموا على أنفسهم الحجة أمام أتباعهم، فقال تعالى يذكر أمرهم: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ). فدلّ هذا على أن آل فرعون قوم بهت، ينكرون في مقام الحجاج والمناظرة ما يعلمون ويقررون في مقام السر والمشاورة.

***العلم بالسحر:**

وهو أعظم علومهم المنسوبة إليهم في القرآن الكريم، ولهم فيه علماء، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)، وهم مبثوثون في أطراف ملكه بث المعلمين والأطباء ممن تقوم إليهم الحاجة بكل حين، فهم في ملك فرعون بمنزلة النخبة العالمة في المجتمعات المعاصرة، وقد مهد الله للأزمنة المتأخرة بأن ذكر من شأن هذه الطائفة ما يتبصر به المسترشد وتقوم به الحجة على القاصد، فلنذكر إن شاء الله عيونا مما يتعلق بهذه الطائفة لتكررها في الأزمان على اختلاف الصناعة.

***النخبة العالمة والمصلحة:**

من عجائب دولة البغي أنها تجند لكل فئة تعارضها أمثالها أو أشباهها من كل الطوائف وأرباب المقالات والصناعات، قال تعالى: (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ)[طه: 57-58]، فليتأمل الناظر كيف جعل فرعون السحر تهمة حين زعم أن موسى عليه السلام ساحر، ثم استعان بمثله وبذل فيه المال، فلما لم تُنجح طِلبته عاد فجعله جرما يؤخذ به فاعله. والعجب ممن يستدعى ليستعان به على ما غايته إبطال معنى صنعته، فيستجيب لذلك كما كان شأن السحرة، فإن غاية ما استُدعُوا له أن السحر باطل لا دلالة له، فأقبلوا على ذلك لما كان غرضهم المال ولو كان في ذلك نقض الغرض في صناعتهم.

والنخبة العاملة في دولة البغي تدافع عن مصلحة لا عن مبدأ، ولذلك فهي غير مستعدة لتعطي حتى تأخذ. وهي تطمع في المال، وفي العلاقات مع السلطة وأصحاب النفوذ. ولا حرج عندها البتة في أن تساوم على خدمتها كفعل المرتزق، لأنها لا تخدم القضية، بل تتاجر بها، قال الله تعالى: (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)[الأعراف: 113-114]، فهذا هو المسمى بلغة العصر: الأجور والتحفيزات، وهذه هي العقود الخفية تحت الشعارات المضللة لعوام الناس وضعاف العقول، مما حكاه الله عنهم في قوله: (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)[الشعراء: 44]، وذلك بعض المثمون، وهو إيهام الخلق أن الغلبة إن وقعت فإنما هي بالحق الذي مع فرعون وبالعزة التي له على أعدائه، وهم أعلم الناس بكذب الدعوى، ولو كان له من العزة ما يرد دعوى عدوه لاستغنى عن جمع كيده وحشر سحرته. وحين حانت ساعة الحقيقة أظهر السحرة موقفهم مما عملوه، وأنه كان عن كراهة لا إيمان فيها ولا اقتناع، فقال تعالى يحكي قولهم: (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[طه: 73].

***النخبة العاملة وأدوات السحر:**

إذا قامت النخبة العاملة في مصالح دولة البغي؛ فإنما اعتمادها على أمرين: المغالطة والتهويل، دلّ عليهما قوله تعالى: (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)[الأعراف: 116]. فالمغالطة تقديم صورة للأمور غير حقيقية تغتر بها العيون، أي يغترّ بها من ينظر ببصره فقط، والتهويل تقديم صور مفزعة ومخيفة، متعلقة بقوة دولة الظلم وقدرتها واطلاعها ومقدار تحكّمها، وقد سمى الله هذا الصنيع إفكا فقال: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)[الأعراف: 117]. وقد بلغ من سحر هؤلاء السحرة أنهم لم ينتهوا عند إبراز صور ميتة لعصيّهم، بل صوّروها وقد دبت فيها الحياة، قال تعالى: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)[طه: 66]، مع أنها في الحقيقة خيالات رائجة على الأبصار، ولا حقيقة لها عند التمحيص، كما هو شأن كثير مما يدعو إليه عبيد المخابر في دولة الظلم والبغي، حين يزعمون أن ما اجترحوه من الإفك الذي يحادون به شرع الله سبب من أسباب الحياة والرفاهية، وهو على الحقيقة أوتاد صماء في قلوب الغافلين وبصائرهم، وهل عجل بني إسرائيل إلا بقية هذا الميراث النجس الذي خرج به ضعاف النفوس من أرض مصر، حتى صوّروا لأنفسهم أن صوت الريح في مجرى الصنم هو صوت الحياة في إله الذهب، ولكن من جعل مناط الحقيقة عنده في صوت يسمعه وبريق يلمحه، فخليق به أن ينزل في دركات الجهل حتى يتخذ العجل إلها..!

*النخبة العالمة والحلف المهزوز:

إن علاقة النخبة العالمة بالدولة الظالمة علاقة غير مستقرة، تجمعها المصالح الآنية، ولكنها قد تنتقض في أية لحظة، وهذا الذي يفسّر المسافة التي اتخذها فرعون من أمثال هؤلاء، فهم ليسوا بحضرته، وإنما هم مبثوثون في المدائن، وبثهم هو نوع تفريق لهم وشق لعصبتهم، وحدٍّ من خطورتهم، بدليل أنهم اجتمعوا مرة واحدة فأحدثوا في دولة الظلم زلزالا عنيفا بسجودهم واتباعهم موسى عليه السلام، حيث كان ينتظر منهم خلافه ومحادّته.

وليس هذا الحلف بالمهزوز من قِبل السحرة وحدهم، لأن من اشترى ذمم السحرة بالمال والجاه، فهو أزهد الناس في محبتهم، وأكثرهم استرابة في حقيقة ولائهم، وما أسرع ما انقلب فرعون على سحرته حين صح إيمانهم وتركوا ما جنّدوا له من حرب الحق ونصر الباطل، فاتهمهم بضد ما دعاهم له (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)[طه: 71].

ثالثا: الإعلام:

ومن أدوات دولة البغي التي تسيّر بها رعيّتها وتثبّت بها سياستها: الإعلام،. وللإعلام في دولة فرعون اتجاهات: إعلام موجه نحو الشعب، وإعلام موجه نحو السلطة، وإعلام موجه نحو حق وأهله. وللإعلام في دولة البغي وسائله وموضوعاته الأساسية:

أ–الوسائل:

*التهم الجاهزة:

يستند الإعلام المأجور دائما إلى مجموعة من التهم الجاهزة، التي يجابه بها من يعارض دولة البغي قبل أن ينظر في دعواه، وغرضه من ذلك ربح الوقت ومحاولة الثبات أمام الهزة العنيفة الأولى، والتهمة الجاهزة في دولة فرعون نعت كل ما لا يرام بالسحر، ورمي كلّ من لا يوافق بالفتنة، ولذلك جاء عنهم أول ما رأوا الآيات البيّنات ما حكى الله عنهم: (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)[يونس: 76]، وقولهم: (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)[يونس: 78]. فالتهم الجاهزة دائما حاضرة، ومهيئة ضد كل من يضاد سياسة دولة البغي.

***الإعلام الموسع:**

ومن وسائل الدعاية في دولة البغي توسيع دائرة الإعلام، واستباق صوت الحق إلى الأسماع، كما كانت تصنع قريش مع الحجيج في الموسم، فإنها كانت تستبق دعوة النبي ﷺ، ولا تترك شريفا ولا رئيسا ولا مسموع الكلمة إلا سبقت إليه فصوّرت له الأمر على ما يخدم غرضها، وذلك من دأب آل فرعون، فقد كان من جنده الحاشرون الذين سبق ذكرهم، والذين من مهمتهم تعميم الصورة التي تخدم مصلحة دولة البغي، ومن مهمتهم كذلك توجيه الرأي العام قبل الإقبال على مقامات الجدل والمناظرة، وهذا من اللؤم البالغ، ومن ضعف الحيلة أمام الحق، كما حكى الله من سوء صنيعهم في ذلك بقوله: (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ . لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)[الشعراء: 39-40]، من غير ذكر للاحتمال الآخر وهو غلبة موسى وهارون عليهما السلام.

***التحريض:**

فإعلام دولة البغي لا ينتهي عند نقل واقعة ولو مزوّرة، بل يصوغها في ألفاظ الإغراء والتحريض والشحن ضد المخالف، مهما كان اتجاه الرسالة الإعلامية، فمن فرعون إلى الملأ من قومه جاءت الرسالة: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[غافر: 26]، ثم يبادله قومه ذات التحريض في قولهم: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ)[الأعراف: 127]، وتحرّض السلطة الشعب بقولها: (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ)[الشعراء: 53-56]، ويتذامر السحرة فيما بينهم بقولهم: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى . قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)[طه: 62-64].

إن هذا الجو المشحون بالتحريض والتثوير لهو نتاج سياسة إعلامية شيطانية، تضيّق المساحة أمام تعقّل خطاب الدعوة والحوار الهادئ مع الدعاة، وتجعل مرجل الحقد يغلي تحت نار التخويف والتهديد من هذا الخطاب، وترفع من أصوات اللغط والضجيج لتغطي به على صوت الحق والإيمان، والله المستعان.

***التشكيك في عدالة الداعي:**

هذه الوسيلة من الوسائل القديمة التي تواصت بها أمم الكفر ودول البغي، فما من أمة كفرية إلا ناصبت نبيها العداء بالكذب والبهتان، ورمته بالقبائح التي نزهه الله عنها، كما قال سبحانه: (كَذَلِكَ مَا

أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)[الذاريات: 52-53]. وهذه حال فرعون وقومه مع موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)[الشعراء: 27]، وقال سبحانه: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)[الشعراء: 34]. وهاتان التهمتان أثيرتان عند الكفرة، فإن تهمة الجنون مخجلة للأتباع، إذ لا يتّبع المجنون إلا الأجنّ منه، وتهمة السحر مخجلة للمتبوع، إذ من كانت دعوته تخييلا فهو أحد الكاذبين، وكان حقيقا أن يترك ويهجر.

*التفسير الانتقائي:

تعمل دولة البغي دائما على تفسير النوازل وفق سياستها، مؤوِّلة طوارئ الخير بأنها نتائج حكمتها ورشدها وسيرتها، أو على أنها علامة رضا الله عنها، وأما نوازل السوء والعذاب فتؤوّلها بأنها نحس مجرور عليها من قبل من يعارض سياساتها، هذا إن لم تتهمه بأنه المتسبب فيها مباشرة أو عن غير مباشرة، وأقل أحوالها أن تتعلْمَنَ وترى فيها عوارض طبيعية لا علاقة لها بسيرة الظلم والبغي التي تسيرها في الرعية. ولكنها بقرار مسبق لا تحمل أية دلالة دينية على الفساد أو أنها من نذر العذاب. وقد حكى الله تعالى ذلك عن فرعون وقومه، فقال سبحانه: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[الأعراف: 130-131]. إن معقد هذا الموقف في الاستكبار والإجرام، فالاستكبار يمنع من تعديل المواقف، ومحاسبة الذات وإعادة النظر في السيرة، وهو ما يمهد السبيل نحو الإجرام، أي نحو الطغيان والتمادي في طريق الضلالة.

ب-الموضوعات:

*التهديد الأمني:

يرتبط فكر الملأ من قوم فرعون دوما بالتهديد الأمني على الأرض: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ)[الأعراف: 109-110]، (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى)[طه: 57]، (قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)[طه: 63]، (إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا)[الأعراف: 123]. فالناس مائلون بالطبع إلى الدعة ولزوم الحال، كارهون للنقلة والفتنة ومفارقة الديار، خصوصا إذا كان محل سكانهم دار الملك البالغة الرخاء والمحصنة من الأعداء، فإذا خُوّفوا بهذا خافوا، وإذا أُزعجوا بدعاواه انزعجوا.

*التهديد الديني:

يربط فرعون الحق بما وُجد عليه الآباء وجرى عليه التقليد، فكل ما خالفه فهو تهديد للتقليد الذي هو دين القوم، فقد حكى الله تعالى عنه قوله: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[غافر: 26]، وحكى عن الملأ من قومه قولهم: (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ)[الأعراف: 127]، وحكى عن جماعتهم قولهم لموسى عليه السلام: (أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)[يونس: 78]، وللناس في أمر الدين إلف وعادة وتعلق، وأمر الانتقال عنهم فيه صعب شديد وإن كان من الباطل إلى الحق، لغلبة سلطان العوائد على النفوس، فكيف إذا صوّر لهم ما اعتادوه من دين الآباء أنه الحق، وأن النقلة عنه فتنة؟ إذًا يزداد تعلقهم به، وتعظم منافحتهم عنه.

رابعا: القوة:

معقل دولة البغي وحصن تأسيسها في القوة، بالمال والجند، فالمال مادة الترغيب، والجند عنصر الترهيب، وجند دولة البغي لا يحفظ سلطان الباغي إلا بالعدو على المستضعفين وترهيب النفوس، فالعدوان في فلسفتها اشتغال مستمر على نفسية الرعية، لئلا تسول لأحد نفسه أن يضادها أو يعارضها.

فأما المال؛ فذكره تعالى في قوله: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)[يونس: 88]، فقد أوتي فرعون وملؤه زينة وأموالا، واستعملوها في الإضلال عن سبيل الله، فأموال دولة البغي وخيراتها ومتاعها كله مصروف لهذه الغاية الخبيثة، سواء كان معنى الآية على الإخبار بالعاقبة، أو كان على الدعاء بأن يجعل الله ما بأيديهم إمدادا لطغيانهم، فتكون أموالهم وزينتهم وزرا عليهم يوم القيامة.

وعنصر القوة في دولة الظلم مقدّم على كل أصناف السياسة، فدولة الظلم لا تحسن الحوار، بل ينتهي الحوار معها دائما إلى العدوان، كما حكى الله عن فرعون قوله: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)[الأعراف: 123-124]. وهذا فرعون يقول لموسى عليه السلام بعد المحاورة وقبل المناظرة: (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)[الشعراء: 29].

ولجَأُ دولة البغي المستمر إلى القوة العنيفة مردّه إلى أنها لا ترى أمامها إلا الحلول الاستئصالية: (قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)[الأعراف: 127]، وهذا التصرف

الاستئصالي هو عادته التي لا يتحوّل عنها كما في الآيات من سورة القصص، ولذلك قال قوم موسى: (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا)[الأعراف: 129]. وهذا يبين أيضا أن دولة البغي إذا دُفعت إلى المضايق افتقدت إلى أي إبداع في حل مشكلاتها وأزماتها، بل كررت النظام نفسه باستمرار. وقد سبق تقرير هذا الأصل، والله الموفق.

5-تقويض دولة البغي وطريق التمكين في الأرض:

بُعثَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالإصلاح في الأرض بالأمر بالمعروف وتشريع أسبابه، وسد أبواب الفساد بالنهي عن المنكر وسد أبوابه. وجعلوا ذلك سنة ومنهاجا لأتباعهم، ولذلك تقرر أن: "الشَّرَائِع جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا"[1]. ولما كان الصلاح والفساد نقيضين؛ لم يصح تقرير الصلاح وتثبيته إلا برفع الفساد ومحوه، ولا تغليب المصالح إلا بتقليل المفاسد، ولذلك جمع الله لبني إسرائيل بين الغايتين في قوله: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)[القصص: 05-06]، وفي قوله تعالى: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[الأعراف: 137].

فتبين من هذه الآيات وأمثالها أن من الواجبات على أهل الحق وحماته أن ينقضوا مباني الباطل في نفوس الخلق، فإنْ حال بين الخلق وبين قبول الحق حائل من حوائل أهل الباطل مبني على الإصرار والاستكبار، وتمادى شره واستشرى ضرره، وعمت غائلته على الناس، فقد صار حقا واجبا جهاده لدفع ضرره حتى ينحسم شرّه وتنطفئ نائرته.

وقد جاء في نبأ موسى وفرعون من أصول نقض دولة الباطل وتقويضها ما جعله الله شرعة للمجاهدين في سبيله، المستضعفين في نير الظلمة والجبارين، وهي على ثلاثة أقسام: أصول اعتقادية، وأصول دعوية، وأصول عملية، ونحن نذكرها على وجه الإيجاز والإجمال كما دلّ عليها الكتاب الكريم، وبالله نستعين.

*الأصول الاعتقادية:

أعظم ما دلّ عليه القرآن الكريم من الأصول الاعتقادية لتقويض دولة الباطل: الالتفاف على دعوة التوحيد، ومنابذة الشرك، لأن هذه المسألة هي أصل الخلاف بين أهل الحق وأهل الباطل. ولما كان من فرعون تلك الدعوى العظيمة المشؤومة التي هي دعوى الربوبية والألوهية، وانبساط الملك على الأرض وساكنيها، فقد كانت القضية الأساسية التي عليها مدار الدعوة، هي قضية الألوهية والربوبية، قال تعالى: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[طه: 49-50]، وقال سبحانه في ذكر المناظرة الكبرى: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

[1]-الجواب الصحيح، ابن تيمية، (17/6).

بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)[الشعراء: 23-28].

وبيان ذلك أن رفع العذاب عن بني إسرائيل، وإرسالهم من قيد الرقّ لا يتحقق إلا مع تحقيق العبودية لله لا لفرعون، وأنه ليس لفرعون أن يزهق أرواحا ليست بيده، وأن ملكه في الأرض ملك استخلاف لا ملك استحقاق، وأن الذي أعطاه الملك قادر على أن يسلبه إياه إذا شاء، ولذلك بعث موسى عليه السلام بدعوة فرعون، وبإصلاح عقيدة بني إسرائيل، قال الله تعالى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[الأعراف: 128]، وقال سبحانه: (وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)[يونس: 84]، فكان لا بد من إعادة إحياء هذا الاعتقاد في نفوس جنود الحق.

ويدخل في الآية إحياء عقيدة التوحيد الطلبي: من الاستعانة والدعاء والاستعاذة والاستغاثة والرغبة والرهبة، لأن من نتائج ذلك ومحصّلاته زوال الطمع والحاجة إلى آل فرعون من قلوب المؤمنين، فيكون ذلك أعون لهم على المفاصلة. وقد شرعها موسى عليه السلام لقومه في نفسه أولا، وهو أشدّهم تعرّضا للخطر، وأولاهم بتحري أسباب الحيطة والتخطي، فقال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)[غافر: 26-27]، فكان لجؤه إلى الله الذي يجير ولا يجار عليه.

ومن الأصول الاعتقادية العظيمة تثبيت المؤمنين بتعليمهم وإعلامهم معية الله لهم بالحفظ والستر والنصر والتمكين، قال تعالى: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)[طه: 45-46]، ولا ريب أن معرفة صفات الله ولوازمها وآثارها في العباد مما يقوي الإيمان بالله واليقين بنفوذ قضائه ومضاء حكمه.

ومن الأصول الاعتقادية العظيمة في حرب دولة البغي تقوية جانب العبادة عند المؤمنين، فالعبادات رغائب ووسائل إلى الله تعالى، يرفع بها البلاء، ويكشف بها الضراء، يستجيب بها الدعاء، وهي عنوان الاستسلام لأمر الله والإقبال على طاعته، وفيها معنى المجاهدة والمصابرة على حبس النفس واللسان في مرضاة الله. والعبادات من أعظم المعونة على تفريغ النفس من الأهواء، وعتقها من قيد الشهوات، وذاك أشد القيود المانعة من التحرر. قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)[يونس: 87]، فأمرهم الله تعالى بأن

يجعلوا بيوتهم: "قبلة للطاعات، ومستقبَلا لله سبحانه وتعالى في العبادات"[1]، كما أمرهم تعالى بلزوم إقام الصلاة، لأنها مجمع العبادات القلبية والبدنية وعنوان الضراعة والحاجة والتوجه إلى الله تعالى، وأن ينتظروا من الله تعالى البشارة على تلك الحال.

ومن الأصول الاعتقادية العظيمة في مقام الخطر وتسلط أهل الشرور؛ ملازمة الدعاء والرغبة إلى الله تعالى أن يدفع السوء، وأن يكفي أولياءه شرّ أعدائه، فقال تعالى: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[يونس: 88-89]، فكانت إجابة الله للنبيين الكريمين عاجلة لتعجيلهما أسباب النصر، وكان دوامها مشروطا بلزوم الاستقامة، ومفارقة سبيل الضالين، وعدم تجديد الركون إلى الظالمين.

***الأصول الدعوية:**

بعث الله الأنبياء دعاة إليه بإذنه ومعلمين لخلقه، ومذكرين بأمره، فأساس مهماتهم في تبليغ الخلق عن الحق سبحانه، ومن أجل ذلك فرض الله عليهم مراعاة مقامات الدعوة من الخطابة والتعليم والوعظ والترغيب والترهيب والجدل والمناظرة والنصح، لئلا يخلو مقام من المقامات من الدعوة إلى الله فيستولي عليه دعاة الباطل. وفرض الله على أنبيائه كذلك منهج الدعوة وطرائق الخطاب، فدعاهم إلى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، ورغبهم في لين القول، وحسن اللفظ، وقصد الخطاب، ليكون ذلك أدعى ليقبل منهم، فإن الغاية في كل حال أن يُقبل الناس على ربهم ويستمسكوا بدينه.

وأيدهم الله تعالى بالحجج الخبرية، والدلالات العقلية، لتطمئن إليهم النفوس، وتركن للحق الذي معهم العقول، وليكون ذلك لهم عونا في مقامات الحجاج والجدل، فإن النفوس متفاضلة في مقدار معرفة الحق وقبوله والانقياد إليه، فكان من رحمة الله أن شرع الطرائق التي تساق بها إلى معرفة الحق والإذعان له.

وفي دعوة موسى عليه الصلاة والسلام تأصيلات عظيمة للجانب الدعوي، غرضها تقويض دعوة الباطل، وكشف زيفها، وفيها ترقٍّ وتطوّر على اختلاف الأحوال وازدياد خلاف المخالفين، وتنقُّل حال الدعوة من منزلة البيان إلى منزلة الاستدلال إلى منزلة المناظرة، وفيها وقفات حقيقة بالتبصر نذكرها إن شاء الله.

[1]-صيد الخواطر، أبو الوفاء ابن عقيل، ص32.

فأول منازل جهاد الدعوة اعتقاد أنها واجبة بكل حال وفي كل حين، ولذلك حين شكا النبيان الكريمان موسى وهارون عليهما السلام إلى المولى سبحانه المخافة من طغيان فرعون لم يسقط عنهما سبحانه فرض الدعوة، فقال تعالى: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)[طه: 43-46]، فجعل تعالى الفساد والطغيان موجبا للدعوة، ولم يجعله رخصة لتركها.

ومن واجبات الداعي أن يعلم أنه إنما هو منصور بتوفيق الله له، وأنه لا يستغني عن هذا التوفيق والتسديد والتأييد طرفة عين، ولذلك ترى أن موسى عليه السلام استعان على خطاب فرعون بالدعاء والرغبة إلى الله، وسأل شرح الصدر الموجب لسعة الخاطر في الحجاج، لعلمه بأن فرعون لا يعطي بيده، وأنه ربما غلبه جهله فعدا على الرسل، وسأل تيسير الأمر في الوصول إلى محل دعوته، وسأل المنة بالبيان لما في الحجاج من الحاجة إلى الفصاحة والبلاغة والبديهة وحضور القلب والخاطر، وسأل شد الأزر بأخيه هارون، مع أن موسى عليه السلام نبي رسول لأن الدعوة إلى الحق ومجاهدة أهل الباطل كلما كثر أهلها كان أمكن لها، ثم يحتاج بعض هؤلاء إلى بعض في التواصي بالحق والتواصي بالصبر وشد الأزر. قال تعالى: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)[طه: 25-35].

ومن المواطن اللطيفة المنزع في الدلالة على وجوب تمام التعلق بالله في مقام الدعوة وبيان الحجة، ما جاء في القرآن في موضعين عند إلقاء السحرة حبالهم وعصيّهم، وفي يد موسى عصاه، ومعه حجّته، وفي فؤاده قضيته، وهو يعلم أن هؤلاء سحرة، وأن عملهم فرية، ولكنه لما وجد الصدمة الأولى لقي ما يلقى بنو آدم عند الشدة، فقال تعالى: (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)[طه: 66-69]، فلم يتهيأ له شيء مما حضرت له أسبابه حتى أيّد بالوحي والتأمين والتثبيت، فأوحى إليه الله يؤمنه من الخوف ويبشره بعلو اليد ويأمره ببذل السبب، فليس شيء من ذلك نافعا حتى يأذن الله فيه، وجاء ذلك أيضا في قوله تعالى: (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[الأعراف: 116-118]، فلم يحصل لموسى عليه الصلاة والسلام المقصودُ حتى أذن الله فيه وأيّد عبده بوحيه.

ومن أعظم الأصول الدعوية التي دلت عليها قصة موسى وفرعون أصل الجدل والحجاج والمناظرة، فإن فصل مناظرة فرعون ثم مناظرة السحرة من فصول القصة التي تكرر ذكرها في القرآن، ووقع الافتنان في سردها لتقع منها العبر العظيمة على وفق مقاصد ذكرها في محالّها من السور.

والمتأمل في مقامات الجدل والحجاج التي ذكرها الله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام يفرّق بين منهجين، منهج مناظرة فرعون، ومنهج مناظرة السحرة، لأن مناظرة فرعون اشتغال على مشكلة الكبر، وهي مشكلة نفسية، وأما مناظرة السحرة فاشتغال على مشكلة الافتراء، وهي مشكلة أخلاقية.

فأما مناظرة السلطة فقائمة على بيان السلطان الإلهي لرد الأمر إلى نصابه بأن ترتدع النفوس الطاغية وتذعن لأمر ربها، وتنتهي عما هي فيه من الظلم والجور والتعالي والإفساد، ومن هنا كانت الموعظة مهمة وكان التذكير أساسيا، وكان الترغيب والترهيب ضروريا، وكل هذا موجود في خطاب موسى عليه السلام لفرعون وملئه، قال تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)[النازعات: 17-19]، فهذا إجمال، ومن تفصيله قوله تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)[طه: 47-48].

ومناظرة السلطة قائمة على التذكير المستمر بسلطان الله، وذكر سنن الملك وتقلّب الدول، ولذلك ذكَّر مؤمن آل فرعون قومه بهذه الحقائق في قوله: (يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)[غافر: 29]، وفي قوله: (يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)[غافر: 30-31]، ويتعلّق بهذ التخويف ذكر المنقلب والمحشر، والحساب والجزاء في قوله: (يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)[غافر: 39-40].

ومع كل هذا فقد وصى الله نبييه الكريمين موسى وهارون عليهما السلام بلين القول مع جبار من جبابرة الأرض، رعاية لتلك المشكلة النفسية التي هي الكبر، فإن الإغلاظ في المقالة لأصحاب هذه النفسيات مما يزيدهم انغلاقا وصدودا، وقد حقَّ أمر الله وصدق فيما شرعه لأنبيائه من منهاج اللين، فآتى أكله، لولا سبق القضاء بدرك الشقاء على فرعون، ولولا وزارة الشؤم ومشورة السوء، قال ابن القيم

رحمه الله: " قيل: إنَّ فرعون لما أراد متابعةَ موسى وتصديقَه شاورَ هامان وزيرَه، فقال: بينا أنت إلهٌ تُعْبَدُ تصيرُ عبدًا تعبُد غيرَك! فأبى العبوديَّةَ واختار الرياسةَ والإلهيَّة المحال"[1].

وأما مناظرة النخبة العالمة، فمهيع آخر من أصول الجدل والحجاج، وإن كان يشارك سابقه في تشريع الموعظة والتذكير، ولكنه يفضله بفضيلة المشاركة في العلم بين الطرفين، وللعلم سلطان على نفوس حامليه، ولو غالبوا أنفسهم على إنكاره أو جحوده، فصار لزاما على من ناظرهم من أهل الحق أن يوقظ في نفوسهم لوازم الإذعان للحق عند معرفته، ولذلك كان في خطاب موسى عليه السلام لهم حزم وعزم وتخويف، قال تعالى: (قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى)[طه: 61]، وقال سبحانه: (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)[يونس: 80-82].

وخدمة النخب العالمة لدولة البغي كيد ساحر، كما قال تعالى: (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)[الأعراف: 116]، إنه سحر للعيون ولعب بالمفاهيم وغش للرعية، وكتم للحق وتزيين للباطل، فهو ضد كل ما فرض الله في العلم من الصدق والحق والأمانة والتجرد والتضحية والنفع. ولا يكون عاقبة هذه الخدمة الآثمة إلا الخسران، (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)[طه: 69]، فسحرة فرعون وأشباههم من نخب دولة البغي يتضخمون من متاع الدنيا وطعام الملوك كما يتضخم الجسد بالأورام التي تأكل الضمائر وتعذب النفوس.

وعليه؛ فإنه يجب التعامل مع النخب العالمة بلغة الحق والباطل والصدق والكذب، لأنها وإن زاغت في خدمة الباطل حينا من الدهر، فإن طلب الحقيقة يساكن دفائن نفوس أهلها وأعماق ضمائرهم، قال تعالى يذكر تداعي أصوات الحق والباطل في نفوسهم: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)[طه: 62]، قال ابن كثير: "فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ، قِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ تَشَاجَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَائِلٌ يَقُولُ لَيْسَ هَذَا بِكَلَامِ سَاحِرٍ إِنَّمَا هَذَا كَلَامُ نَبِيٍّ، وَقَائِلٌ يَقُولُ بَلْ هُوَ سَاحِرٌ"[2]، فالتنازع الذي وقع بينهم دليل على أن من بينهم أصواتا تخفت بالحق في أصوات تعج بالباطل، ولذلك لما أجمعوا على مقالتهم عللوا الحكم بغير علته فقالوا: (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)[طه: 63]، فلم يتضمن كلامهم علة صحيحة، بل تخويفا من زوال النعمة وفوات المصلحة المحسوسة، ثم قالوا: (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)[طه:

[1]-مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، (266/1-ط عالم الفوائد).

[2]-تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (348/9-ط أولاد الشيخ).

64]، فكان مبدؤهم في المناظرة الاستعلاء لا المحاققة، فغُلِبُوا في كليهما وخضعوا لسلطان الحق، والنصر من الله عز شأنه.

وشأن العالم أنه يستطيع أن يغالط كل الناس إلا نفسه، لأن سلطان الحقيقة أكبر في النفس من أن يعدُوَه النظر، أو يخاتله العقل، قال تعالى: (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)[الأعراف: 125-126].

إن النخب العالمة أحد مكامن الضعف في دولة البغي لأنها غير مأمونة على ولائها المطلق، فهي في كل لحظة تهدد كيان الظلم بالانقلاب عليه لأن في عمقها عَقدا مع الحقيقة. إن سحرة فرعون مثال عجيب عن هذه الحالة، فإنهم استجابوا في الحقيقة لنداءين يتداعيان: نداء الآيات الطارئة، ونداء الفطرة الكامنة، (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا)[طه: 72]. وهل حكمة إرسال الآيات إلا إيقاظ هذه الفطرة وبعث حركتها لتقود الجسد على مقتضى الشريعة؟

لقد أثرت هذه الهبة والصحوة في نفوس السحرة أثرا عجيبا، فبعثت فيهم شجاعة بالغة، وهانت عليهم أنفسهم أمام الحقائق التي لم يمكنهم إنكارها (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[طه: 72]. إن النخب العالمة تعلم أن وراء هذا العالم المحسوس المشهود عالم غيب يعتدل فيه ميزان الخليقة، وأن أقضية الخلائق في العالم المحسوس حكمُ فانٍ على فانٍ في دار الفناء، وأما الحق المنشود الذي لا يتصور بطابع الزمان والمكان، فله دار غير هذه الدار، كما بعثت فيهم توبة نصوحا: (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)[طه: 73-76].

إن المتأمل لا يكاد يصدق أن وراء تلك الألسن التي تآمرت على الكذب وغش الناس، هذا القدر من المعرفة بالحقيقة، ولكنها معرفة مكتومة الأنفاس تحت طِباق من الجبن والهلع والطمع والحسد والكبر، فإذا جاءت الحقيقة بأنوارها وأصدائها نفضت كل ذلك بنفخة واحدة، كما قال الحق سبحانه: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)[الأنبياء: 18]. لقد اعترف السحرة بأنهم كانوا في مهنة على كراهة، وإنها والله لحقيقة الآلاف المؤلفة من جنود دول الباطل المسلسلين في أصفاد الإكراه والتهديد والوعد والوعيد لخدمة الظلم والظلمة، ولكنهم حين هبت عليهم رياح اليقظة استجابوا لمطالب العلم الأصلية؛ وهي البحث عن الحقائق المطلقة، فوصلوا إلى حقيقة الحقائق(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[طه: 73].

إن كلام السحرة ردٌّ للموازين القسط في أنفسهم ابتداء، وهذا من نصح المؤمن لنفسه، (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)[طه: 74-76]. إن من علم أنه في طريقِ فساد ومهنةِ إكراه ومسلكٍ هو نفسُه غير مؤمن به لا هو بالحي بما يكسب ولا بالميت لما يداخله من ألم مخالفة الحق الذي علمه، هذه حاله في الدنيا الفانية، فكيف لو سيق إلى عذاب أخروي بهذه الحالة لا تنقطع عنه أبد الآبدين؟ وأما ما كان يؤمله من الرفعة الدنيوية، فقد عرف ما هو خير منه، وهي الدرجات العلى من الآخرة، وعلم أنه إن كسر الحاجز بين نفسه العالمة ونفسه الطيبة نال تلك الدرجات، وليس له ذلك إلا بأن يحطم عن نفسه قيود الجبن والخور والطمع ومساوئ الأخلاق والطباع، وذلك عين التزكية، (وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)[طه: 76].

فلما وقع السحرة تحت سلطان الآية قال فرعون: (آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)[طه: 71]، فتبين أن دولة البغي لا دين لها تدفع عنه على الحقيقة، وإنما عقيدتها في مصلحتها، وفرعون لا يبالي في اعتقاد السحرة كذبه في ادعاء الألوهية، وإنما همه في أن يكونوا خدما له في شد قواعد سلطانه وتوطيد دعائم دولته، ولكل عبد بعد ذلك أن يعبد ما يشاء، فهذا من جنس علمنة الدولة، حيث يكون ولاء الظاهر والخدمة للدولة وإن كانت السرائر على خلاف ذلك.

والحاصل أن في مناظرة السحرة وردّهم إلى الحق تقويضا لدعامة عظيمة من دعائم دولة البغي، وجدَ أهلُ الباطل حرّ ضربتها، فصارت أقوالهم وعيدا وتهديدا، وصارت أفعالهم تقتيلا وتشريدا، وذلك مؤذن كما ذكرنا بقلة الحيلة وضعف الوسيلة وانقطاع أسباب السياسة، وكل ذلك تمهيد لخراب دولة الباطل وانقضاء مدتها، فإن القوة الغضبية إذا انفرطت من قيد التدبير أتت أول ما تأتي على صاحبها فكان في ذلك هلاكه ودماره، وذلك مكر الله بأهل معصيته، ولا غالب إلا الله.

وقد تعلق بهذه الواقعة العظيمة منهج من أصول الدعوة في تقويض دولة الباطل، وهو أن من جهاد دولة البغي كشف زيوفها، وعرض مفاسدها، وتبصير الناس بظلمها وعدوانها، ليكونوا على بينة منها، ولذلك قال موسى عليه الصلاة والسلام: (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)[طه: 59]، فإن الحق أبلج، ولا يجري في سراديب الظُّلمة، وإنما إذا قامت سوقه اختيرت له مقامات العيان والجلاء، ليعلم الناس أن صاحب الحق على ثقة من حقّه، وأن الحق أُنزل ليُعرف ويُتبع، وأن الحق شِركة بين من بلغه، لا يستأثر به طائفة دون طائفة، ولا يلزم تكليفُه شيعة دون أخرى، وإنما هو للناس جميعا.

***الأصول العملية:**

إن جهاد الباطل في دين الله عز وجل ترك وفعل، فأما الترك فيقع به تعطيل قوة دولة الباطل وتقطيع أواصرها، وأما الفعل فبه يحصل هدم بنيانها وكسر شوكة طغيانها ومسح آثار رجسها. وجهاد العمل ينبغي أن يُنظَر له في الحركة التي يحصل بها مزيد القوة لأولياء الله، ومزيد الضعف على أعدائه، سواء كانت بالفكر أو باللسان أو بالبدن أو بالمال.

وتحارَب دولة البغي بنقض أغراضها ومخالفة مقاصدها، ومن أجل ذلك كان لا بد من فهم أبنية باطلها وتحليل سياسات بغيها، لتحصل المخالفة والمناقضة والتعطيل، وليقع العمل في محل تأثيره، فيحصل به الأثر مهما كان يسيرا. ومن أمثلة ذلك أن فرعون كان فرّق بني إسرائيل في الأرض لئلا يقوموا عليه وتحصل لهم باجتماعهم قوة، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا بمصر التي هي شرق النيل بيوتا بغرض الاجتماع تمهيدا لتيسير الخروج الجماعي من مصر إذا أذن الله فيه، وأمرهم الله أن يقيموا الصلاة رغبة إليه أن يقصم الجبارين وينجي المؤمنين. فكان في اجتماعهم مخالفة سياسة فرعون في تفريقهم، وكان في جمعهم على الصلاة إعادة لحمتهم، وجمع كلمتهم، وتوحيد صفّهم، والاجتماع على الصلاة من أعظم أسباب اجتماع الكلمة وزوال الفرقة، لما يرى الناس بعضهم من بعض من استواء الحال في الفقر إلى الله والحاجة إليه، ولما يستقوي ويستأنس به بعضهم ببعض على تكاليف العبادة. وفي دعاء موسى عليه السلام إشارة بالغة اللطافة إلى ذلك، في قوله: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)[طه: 29-32]، فإن سؤال الشركة في هذه المنقبة العظيمة فيه دلالة على أن المؤمن بأخيه، وأن ما اشتركت فيه الجماعة من عمل البر كان حقا على الله أن يبارك لها فيه، وأن اجتماع أهل الحق أقوى لأمرهم وأدعى لإنجاح مسألتهم.

ومن مناقضة أغراض دولة الباطل دوام مقابلة الباطل بالحق، فإن الباطل لا يغرّ إلا إذا انفرد، فإن صدمه الحق انجحر، فمن الأصول العملية مداومة قذف الباطل بشهب الحق، قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[الأعراف: 117-118]، وقال سبحانه: (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)[يونس: 81-82]، ولا يتم العمل على هذا الوجه إلا أن يكون أهل الحق والعلم على يقين مما بأيديهم، مليئين منه، موقنين بنصر الله.

ومن الأصول العملية التي دل عليها القرآن، أصل المصابرة، قال تعالى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))[الأعراف: 128]، وهو الأصل الجامع لغيره من الأصول الاعتقادية والدعوية والعملية، إذا لا يتم شيء من أمر

الحق إلا على الصبر والمداومة، ليعلم الله من قلوب أوليائه العزم واليقين، وليتخذ منهم شهداء، ولأن لأهل الباطل على باطلهم جلَدا وصبرا، فوجب أن يكون لأهل الحق منه فوق ما لأهل الباطل، ولهم بعدُ فضل الأجر عليه، والوعد من الله بالعاقبة الحسنة، قال تعالى: (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)[النساء: 104]، وأخبر سبحانه أن من موجبات إتمام وعده لأوليائه صبرهم على قضائه واستمساكهم بأمره، قال سبحانه: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا)[الأعراف: 137].

6-زوال دولة الباطل وهلاك آل فرعون:

ذكرنا في ما سبق من مباحث ما تيسّر بيانه ومنّ الله به من أحوال الدولة الفرعونية ومباني باطلها، ومسالك تقويضها وإقامة الحق موضعها، ونحن نذكر في ختام الكلام إن شاء الله تعالى حال زوال هذه الدولة وانقضائها وتهدّم أركانها وذهاب سلطانها. وأصل ذلك أن الله تعالى لا يقرّ في ملكه أن يدوم الباطل، بل يقيم دولته بمشيئته وحكمته ساعة من الدهر ليكون فتنة لمن أراد الله فتنته وجهادا لمن أراد الله رفعته، ثم يعود أمر الحق إلى نصابه ليستيقن أهل الإيمان ويذعن أهل العصيان، قال الله جل شأنه: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)[القصص: 58]، فلا يبقى من دولة الباطل بعد زوالها، إلا آثار تشهدها الأبصار، وأخبار تتلقفها الأسماع، ليعتبر بها المعتبرون.

والحق أن هذا الموقف الأخير من مواقف الدولة الفرعونية –وهو موقف الزوال– موقف شهود، فإن الله تعالى قد جعل من النظر في زوال دولة الباطل تأملا في آية من آياته وشهودا لنعمة من نعمه، لأن هذا النظر يورث اليقين بقدرة الله عز شأنه، والإيمان بجبروته سبحانه، وأنه إذا أخذ عبيده لم يفلتهم. وقد أمر الله تعالى عباده أن يشهدوا آياته، كما قال سبحانه لعبده الصالح العزير: (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا)[البقرة: 259]، وإنما تجدد الأمر بالنظر في هذه الآية للدلالة على أن شهود الآيات من العبادات.

وقد امتن الله على بني إسرائيل بعد الاستضعاف بأن أشهدهم هلاك عدوهم وزوال ملكه وسلطانه فقال سبحانه: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)[البقرة: 50]. فدلت الآية على المنة بإشهاد المستضعفين هلاك الجبارين، ودلت آية سورة يونس على أنها آية وعبرة لمن شهدها وحضرها فانتفع بها، قال سبحانه: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)[يونس: 92].

وقد علّق القرآن زوال دولة فرعون بعلة واحدة باطراد، وهي ذنوب أهلها ومعاصيهم من الكفر فما دونه: من ظلم وطغيان وإسراف وفسق وتكذيب ونكث وفساد، فقال سبحانه: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[آل عمران: 11]، وقال سبحانه: (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)[الأعراف: 136]، وقال سبحانه: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[الأنفال: 52]، وقال سبحانه: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[يونس: 90-91]، وقال سبحانه: (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)[الإسراء: 103]، وقال سبحانه: (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)[المؤمنون: 47-48]، وقال سبحانه: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)[القصص: 39-40]، وقال سبحانه: (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ)[الزخرف: 55-56]، وقال سبحانه: (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)[الذاريات: 39-40]، وقال سبحانه: (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)[الحاقة: 09-10]، وقال سبحانه: (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)[المزمل: 16]، وقال سبحانه: (فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)[النازعات: 21-25].

فهذه جملة ما جاء في القرآن من أخذ فرعون وآله بذنوبهم، والغرض من استقرائها في هذا الموضع بيان أمرين: أحدهما أن الذنوب تتداعى، وأن الكفر أصل كل المعاصي وباعثها، وأن إليه منتهى انشعابها، والثاني أن من عظيم عقاب آل فرعون أنه ما من ذنب من ذنوبهم إلا وقد أُخذوا به، فأحصى الله لهم أعمالهم، وأتبع عليهم جزاء سعيهم، وأوفى لهم كيل خطيئتهم، وذاك سوء الحساب الذي ذكره الله تعالى في كتابه، ومن عظيم ما ذُكر في تفسيره ما رواه فرقد السبخي قال: "قَالَ لي إبراهيم: يا فرقد، هل تدري ما سوء الحساب؟ قلت: لا، قَالَ: أن يُحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر له منه شيء"[1]، دلَّ عليه قوله تعالى: (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)[النازعات: 25]، أي جزاءً بآخر عمله وأوله، وخاتمة ظلمه وفاتحته.

ومن العبر العظيمة في انهيار الدولة الفرعونية، أن هدم أركانها وقع في أمرين، يجمعهما جامع، وهو عقوبة فرعون وآله بنقيض قصدهم وخلاف مرادهم، فأما أولهما فجمع فرعون كيده وسحرته، يريد هدم حجة موسى عليه السلام فهدم الله حجته وأبطل في ذلك المقام كيده، وفضحه على ألسنة من كان يرجو منهم التناصر على ستر كذبه وإمرار بهتانه. وأما الثاني فجمع فرعون جنده، وحشره من المدائن أتباعه، يريد أن يستأسر بني إسرائيل في سلطان بغيه، فرهن الله مهجته في شراك حتفه، وجعل في تدبيره تدمير ملكه وزوال شوكته، والله يسوق الطالب –وهو مطلوب الموت على الحقيقة– إلى مصرعه.

[1]-أخرجه الخطيب في تاريخه(480/3-ط بشار).

وفي هذا عبرة عظيمة، وهي أن دولة البغي إذا بلغت غاية ظلمها ونهاية كفرها؛ واستظهرت على ذلك بظاهر قوتها وبادي جبروتها، كانت أقرب ما تكون إلى زوال أمرها وانقضاء آجال ابتلائها والابتلاء بها، وقد ضرب الله تعالى هذا مثلا لقريش في خروجها يوم بدر، فقال تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48))[الأنفال: 47-48]، فساقها الله إلى مصارع صناديدها بما جبلها عليه من الكبر، وكتبه عليها من الكفر، وبنفخ الشيطان في معاطس ساداتها وكبرائها، وطمسه على بصائر أتباعها، ليأخذ الله كُلًّا بذنبه، والله يحكم لا معقّب لحكمه.

وفي إهلاك فرعون وقومه وجنوده بالإغراق في البحر حكمة عظيمة، وهي أن هلاكهم وقع بآية لم تقع العادة بزوال الممالك بمثلها، ثم هي خارقة لعوائد المخلوقات، لئلا يزعم زاعم بعد ذلك أن زوال الشوكة كان بتدافع الأمم وقواعد الحروب، وإنما جعلها الله آية سماوية ليس لبني آدم يد بها ولا بمثلها ولا بقريب منها، وتلك سنة الله في قهر دولة البغي إذا ضعفت عنها أسباب الصالحين، فيؤيّدهم الله بنصره، ويمدّهم بأخفياء جنده. ولما أراد الله تعالى أن يسوق فرعون وملأه إلى حتوفهم، أخرجهم على أسوءِ مقصد وأضله: البغي على الحق والعدو على الخلق، فأهلكه الله بعقوبة مقابلة لما أظهر هو وجنوده من الجبروت، فأُغرق في أسافل الأرض بعد أن طلب العلو إلى السماء، وصار مطلوبا أمام الموج بعد أن كان طالبا أقفاء بني إسرائيل، وهكذا تصير دولة الظلم والبغي إلى سوء عاقبة من جنس ما أظهرته أيام سلطانها من أنواع المفاسد.

وقد جعل الله إهلاكَ فرعون من دلالات وحدانيته الموجبة لتجديد توحيده في القلوب، دلّ عليه سياق الآيات في سورة الأعراف، قال تعالى: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[الأعراف: 138-141]. ووجه الدلالة في الآية أنها امتنان من الله تعالى على بني إسرائيل في سياق كلام موسى عليه السلام، فالأسلوب من قبيل الالتفات. وهي آية تدل على دوام المنة بالإنجاء من آل فرعون في سياق تحقيق العبودية، فكان حق الله عز وجل أن يؤدى شكره وتوحيده، لما انهيار دولة البغي من الشاهد على الوحدانية والتذكير بتوحيد العبودية.

ولما كان ملك فرعون قائما على حكمه، وسلطان ملئه، كان في ذهاب السادة والقادة وأعيان الدولة، ذهاب لجملتها، وكذلك كل دولة يتعلق سلطانها بأعيانها، فإن في ذهابهم ذهابها وفي تبديلهم انقطاعها. فانقطع بذلك من الأرض سلطانهم، ومحيت من القلوب رهبتهم، ولم يبق من ذكرهم إلا ما يعتبر به من له قلب، ويشهده من له بصيرة، وأخبر سبحانه أنه دمر صنع فرعون وبنيانه، وجعل في هلاكه ذهاب دولته، فقال سبحانه: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[الأعراف: 137].

خاتمة: آيات المعتبرين وسنن الغافلين

ولما أفضينا إلى ختام المقال في ذكر حال الدولة الفرعونية، فقد صار لزاما التذكير بما به كان الشروع، وهو أن دولة فرعون وأحوالها إنما ذكرت في القرآن الكريم لتكون آية للمستبصرين، وعظة للمعتبرين، ولكن الله تعالى جعل الناس بعدها طائفتين، طائفة عقلت عن خطاب الله حكمة الاعتبار، واستننت في ذلك بأمر الأنبياء وإرشادهم، فإن الله تعالى أخبر بني إسرائيل وهم تحت نير الظلم أن هذا البلاء مرفوع عنهم، وأنهم مستخلفون من بعده في الأرض ومبتلون بمثل ما ابتلي به فرعون وملؤه من قيام الملك وسطوة الحكم، فقال تعالى: (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)[الأعراف: 129]، ففي الآية بيان عظيم بأن المتولي بعد دولة البغي لا ينبغي أن يغفل عن أخذ العبرة منها بإصلاح كل مفاسد الدولة الفرعونية، ولذلك قال تعالى منبها إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال من دالت له الدولة بعد الاستضعاف: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[الحج: 41]، وقال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[النور: 55].

وأما الطائفة الثانية، فهي التي استدبرت الآيات، وصرفت عنها أبصارها وقلوبها، وأبت أن تعتبر بها، فسارت سيرة الظلمة الأوائل، قال تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[يونس: 92]، ففرعون آية على امتداد الزمان، لمن حضره ولمن رأى أثره ولمن سمع خبره، ومع ذلك فسنته في البغي ماضية في دول الظلم وسلاطين العدوان، (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)، أي غافلون عن إدراك حقائق العبر في خبر فرعون، فهم يعيدون السيرة نفسها.

فاللهم يا مالك الملك ويا قاهر الملوك، ويا من بيده المقادير، نسألك أن تحشرنا في وفد المتقين، ونعوذ بك أن نساق في ورد المجرمين، ونسألك أن تجعلنا من جند الدولة الحنيفية الموسوية المحمدية، ونعوذ بك أن نمتهن في أعتاب الدولة الفرعونية والملة الطاغوتية، ونسألك اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى، ونتوسل إليك بعزتك التي لا ترام وقدرتك التي من أوى إليها لا يضام، أن تعيذنا من كيد كل جبار عنيد ومن شر كل شيطان مريد، وأن تجعلنا ما أحييتنا سلما لأوليائك، حربا على أعدائك، حَرسًا للحق، أعداء للباطل، ونسألك يا ربنا أن تُديل الدولة لأهل الحق وترفع رايتهم وتجلي محنتهم وتعزّهم بعزك العظيم، وأن ترفع عنا بأس الظالمين، وأن تجعل عليهم الكرة الخاسرة وسوء الدائرة، فإنهم ظنوا أنهم يعجزونك هربا، أو يبلغونك غلبا، ولا غالب إلا أنت.

والحمد لله الذي علم القرآن بمنه، وبصّرنا أحكامه بفضله، وصلى الله على نبي الرحمة ورحمة الأمة، مُحَمَّد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.